رشـاد أبو شـاور

كتابات محبة

محطات وإشارات في الشعر والقصة والرواية

الكتاب: كتابات محبة (محطات وإشارات في الشعر والقصة والرواية)

الكاتب:رشاد أبوشاور

الطبعة: 2017

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : 35825293 – 35867576 – 35867575

فاكس : 35878373

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

أبوشاور، رشاد

كتابات محبة (محطات وإشارات في الشعر والقصة والرواية)/

رشاد أبوشاور – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

.. ص، .. سم.

الترقيم الدولى:**8 – 384 – 446– 977– 978**

رقم الإيداع **2017/10068**

كتابات محبة





كلمة

هذه بعض مقالاتي التي نشرتها في الصحافة العربية، على امتداد عقود من الكتابة. إنها مختارات، وأطمح أن تصدر لي كتب تضم المزيد من المختارات التي أرضى عنها، وأرى أنها تضيف شيئا، ولو متواضعا، للقارئ العربي، وتسلط الضوء على بعض الأعمال الأدبية.

لا يمكن أن أجمع في كتاب واحد (كل) ما كتبت ونشرت من مقالات على امتداد أكثر من أربعة عقود، فأول مقالة نشرت لي كانت عن المجموعة الشعرية الأولى للشاعر الصديق فوّاز عيد – رحمه الله – التي صدرت عن دار الآداب.. ونشرت المقالة في العدد السادس عام **1964** في مجلة (الآداب)، وكنت آنذاك في الثانية والعشرين من عمري.

بدأت حياتي قاصا، وحتى اليوم صدرت لي ثماني مجموعات قصصية، وسبع روايات، ناهيك عن كتب للفتيان، وعمل مسرحي بعنوان " الغريب والسلطان"، وكتاب "آه يا بيروت" وهو (روايتي) لمعركة بيروت **1982**، وكتاب "رائحة التمر حنة" عن (زياراتي) لوطني فلسطين، ورواية ما رأيت..وما تذكرت.

هذا الكتاب يصدر بتشجيع من صديقي الأديب والإعلامي خالد محمد غازي، وعن منشورات"وكالة الصحافة العربية"، وهو ليس الكتاب الأول، فقد صدر لي عن نفس المنشورات عملان أدبيان.

بين دفتي هذا الكتاب مقالات عن شعراء فلسطينيين اشتهروا في القرن العشرين، وملأت أسماؤهم فضاء الوطن العربي الكبير، وما زالت بعض قصائدهم تتردد بألسنة عربية في عدّة أقطار، فنشيد (موطني) لشاعر فلسطين الكبير إبراهيم طوقان، الذي عاش حياة قصيرة **1905 – 1941** جعله العراق بعد الاحتلال الأمريكي، نشيدا له، ومازال الفلسطينيون ينشدونه في احتفالاتهم، وفي مناسباتهم الوطنية، وفي توديع شهدائهم وشهيداتهم. وهذا النشيد يتردد في وسائل الإعلام العربية، وفي الاحتفالات، حاضًّا على افتداء الوطن، ومقاومة الاحتلال، سواء الصهيوني أو الاحتلال الأمريكي.

موطني الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك

والحيـــــاة والنجـــــاة والهناء والرجاء في هواك

هل أراك؟

سالما منعما وغانما مكرما

هـــل أراك في عـــلاك

تبلغ السماء

موطني

الصوت الوطني لإبراهيم طوقان نتذكره في قصائد كثيرة، من موطني، مرورا بالفدائي، وصولاً إلى الثلاثاء الحمراء التي أبدعها عن الشهداء الثلاثة الذين أعدمتهم بريطانيا المجرمة، عقابا لهم على دورهم البطولي في ثورة **1929**.

لم يبدع إبراهيم طوقان الشعر الوطني حسب، بل أبدع في غزلياته، وشعره الإنساني، وفي تقديره للفتيات اللواتي اخترن مهنة التمريض لخدمة الإنسان، فقد ذاعت قصيدته الشهيرة "ملائكة الرحمة"، التي مطلعها:

بيض الحمائم حسبهنه

أني أردد سجعهنه

رمز السلامة والوداعة

منذ بدء الخلق هنه

شعر سلس، بطولي، عميق الوطنية، والإنسانية، شعر مُحب للمرأة، وللحياة، ولذا فهو شعر تجديدي لا يلجأ للمحسنات البديعية، والقوافي الرتيبة، وهو شعر معاصر في زمنه، حداثي بموضوعاته، وأوزانه، وموسيقاه، ولذا مازال يعيش معنا، نتذوقه، ونستمتع به، ونردده بحب.

من الصعب تقديمي دراسة ضافية عن إبراهيم طوقان وشعره، ولكنني بما كتبته قصدت أن أجذب القارئ العربي للسعي بنفسه للتعرف على

شعر إبراهيم طوقان، وفلسطين ومعاناها في زمنه، ولعل المدهش أن شعر إبراهيم طوقان يعرفنا بجوانب القضية الفلسطينية وأبعاد الصراع مع الزحف الصهيوني، والانتداب البريطاني الاستعماري المجرم...

ليس من الصدفة أن صداقة عميقة ربطت بين إبراهيم طوقان والشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي (أبوسلمى)، والذي كان غاضبا مثل رفيق عمره، وعاصر ثورة فلسطين الكبرى، وكل هبّاها، ونكبة **1948**، وزمن الاقتلاع، وكان شاهدا على الخيانات التي أودت بفلسطين وشرّدت شعبها.

هجا (أبوسلمى) ملوك العرب وحكامهم، في قصيدته (أنشر على لهب القصيد):

أنشر على لهب القصيد

شكوى العبيد إلى العبيد

شكوى يرددها الزمان

غدا إلى أبد الأبيد

قالوا الملوك وإنهم

لا يملكون سوى الهبيد

دُكت عروش زينوها

بالسلاسل والقيود

شاعر غاضب، وكيف لا يكون شعراء فلسطين غاضبين، وهم يرون وطنهم يستباح، وأرضهم تسرق، وشعبهم يمزّق، ودول العرب تتواطأ، وبعضها يخون نهارا جهارا؟!

قد يدهش القارئ العربي وهو يقف أمام رقّة شعراء هؤلاء الشعراء وحنينهم المُوجع، وحبهم الرقيق العميق النبل، والإنسانية التي تطبع شعرهم العظيم.

لا يمكن إيفاء أي شاعر من هؤلاء الكبار حقّه، سوى بدراستهم بشكل واف ضاف، وهذا ما أنصفهم به بعض النقاد والدارسين.

كتبت في هذا الكتاب عن الشاعر والقاص أحمد حسين، وهو شقيق رائد القصيدة الحديثة في فلسطين المحتلة عام **1948**، وهو، ربما يكون مجهولاً خارج فلسطين، لأنه لا يغوى الشهرة ولا يبحث عنها، فهو يخوض معركة مع الاحتلال ولا يلتفت خارج الميدان.

مجموعته القصصية الأولى "الوجه والعجيزة" شكّلت مفاجأة للقارئ عندما أعدنا نشرها خارج فلسطين، وقصائده في مجموعاته الخمس تضيف صوتا شعريا كبيرا جديدا للشعر العربي الفلسطيني..كم أتمنى لو تصدر في مجلد واحد ليسهل وصولها للقارئ العربي.

توقفت في هذا الكتاب، بمقالة تعبّر عن مدى تقديري للكاتب الكبير، القاص والروائي، يحيى حقي، في رائعته" قنديل أم هاشم" وكم أود لو

يطلع القرّاء على هذه الرواية الصغيرة الحجم الكبيرة القيمة ليتعلموا منها، فضلا عن الاستمتاع بها.

في هذا الكتاب مقالة صغيرة عن رواية كبيرة الأهمية، للروائية لنا عبد الرحمن، هي " قيد الدرس"، وهي روائية وقاصة لبنانية – مصرية، وهي واحدة من الأصوات الأدبية المتألقة والتي حققت حضورا على المستوى العربي، ككاتبة جادة لا تسعى للإثارة والشهرة المفتعلة.

عرّفت في هذا الكتاب بالكثير من الأصدقاء الأدباء روائيين وقصاصيين وشعراء، قرأت أعمالهم بشغف.

سأتوقف هنا، فلا ضرورة للتحدث عن كل ما كتبت في الكتاب، وكلي أمل أن أكون قد قدمت للقارىء ما يفيد ويمتع.

والآن.. أترك القارئ العربي ليبحر مع كتابي هذا، في رحلة آمل أن تكون نافعة وممتعة.

رشاد أبو شاور

الجزء الأول

محطات وإشارات

رحلتي مع الرواية

يعود الفضل لزيارتي للسودان للطيب صالح، الذي قرأت روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) في مجلة (حوار) عام **1966** فأدهشتني واستحوذت على نفسي وجذبتني لقراءتها أكثر من مرّة

عرفت الطيب صالح في مؤتمرات، أحدها عقد في تونس عام **1973**، وسهرنا معا، واكتشفت مدى تعلقه بشاعر العرب المتنبي، وغنى ذاكرته التي تختزن روائع المتنبي، وشهدت كيف ضلل بعض الشعراء العرب حين قرأ لهم أبياتا من شعر المتنبي، وطلب منهم أن يتعرفوا على قائلها، فكانت الحيرة، حتى إن أحد الشعراء أصر على أن الطيب هو صاحب الأبيات، وكان ذلك كمينا من الطيب نصبه بدهاء، فأحرج الشعراء الحاضرين في تلك الأمسية.

مثلكم قرأت كل أعمال الطيب صالح: موسم الهجرة إلى الشمال، عرس الزين، ضو البيت، مريود.. وتوقفت عند قصصه القصيرة المركزة المكتنزة بالمشاعر الإنسانية والطرافة التي ضمتها مجموعته الوحيدة (دومة ود حامد).

هذه تحيتي المتواضعة للطيب ولذكراه، هو الذي أسهم في إغناء وتطوير الرواية العربية، أما السودان فقد عرفته مما رواه أبي عن شجاعة

الجنود السودانيين الذين قاتلوا في قريتنا، والقرى المجاورة عام 1948 ضمن الجيش المصري، والذين لفرط شجاعتهم مازالوا يحظون بإعجاب من بقي من ذلك الجيل الذي عرفهم جنودا أشداء في المعارك، رغم قلة العدد والعدّة.

في بيروت عرفت أحد السودانيين عام 1982، وهذا الرجل (الزول) دافع عن المدينة التي أحبها، فقد حمل السلاح وتوجه إلى الجامعة الأمريكية مع زملائه المصريين والفلسطينيين، ولأنني كنت أتردد عليهم ليليا تقريبا، فقد أطلقت على موقعهم اسم (محور وادي النيل)، وكتبت عنهم في كتابي(آه يا بيروت).

رحلتي مع الرواية بدأت في العام 1973 عندما نشرت روايتي الأولى (أيام الحب والموت) وهذه الرحلة مازالت متواصلة حتى يومنا، وأحسب أنها ستستمر إذا ما امتد بي العمر.

في آخر العام 2012 صدرت روايتي (سأرى بعينيك يا حبيبي) عن دار الآداب، وخلال السنين بين نشر تلكما الروايتين، صدرت لي الروايات: "البكاء على صدر الحبيب"، "العشاق"، "الرب لم يسترح في اليوم السابع"، "شبابيك زينب".

بدأت كاتب قصص قصيرة، وحتى الآن صدرت لي ثماني مجموعات قصصية، والكثير من قصصي نُشر على صفحات مجلة (الآداب) البيروتية، التي آلمني أن أقرأ قبل أيّام خبرا عن توقفها عن الصدور.

لم أنتقل من القصة إلى الرواية، لأنني طمحت دائما لكتابة الرواية، إلّا أنني تريثت، فقرأت أكثر، واتسعت قراءاتي، وتعمقت تجربتي الحياتية، ومن بعد هيئ لي أن الأوان قد آن لكتابة روايتي الأولى، فكانت (أيام الحب والموت)، التي أردتها أن تكون حكاية شعبية، يمكن أن تروى في مجالس أهلي الليلية، كما لو أنها (خرّافية).

لا أريد أن أستشهد بكتابات لنقاد توقفوا عند تلك الرواية وغيرها، كما لو أنني أحتاج لتزكية أعمالي الروائية، ولذا أتجاوز عن الإطراء، والمديح، خاصة وأغلب ما يُسمى بالنقد يندرج في خانة المديح والمجاملات، وأحيانا يمكن أن يصنف بأنه هجاء، وهذا لا يلغي أبدا توفر دراسات نقدية أقدرها.

روايتي الثانية (البكاء على صدر الحبيب) الصادرة عام **1974**، أحدثت مفاجأة في الوسط الفلسطيني، بخاصة المقاوم، وتسببت في معركة بين اتحاد الكتاب الفلسطينيين وبعض قادة الثورة الفلسطينية، لأنها كانت أول رواية فلسطينية ناقدة يكتبها روائي من داخل المقاومة، تفتح العيون على جوانب خطيرة بدأت تتفشى في ثورة أفسدتها المدن، وعقلية الاستعراض، والمؤامرات التخريبية الخارجية، ولاسيما النفطية.

اضطررت لمغادرة بيروت، وغبت عنها سنتين قبل أن أعود إليها، ولكن الرواية ظلت تحدث ارتدادات، وقد وصفتني إحدى مجلات اليسار الفلسطيني بأنني سولجنتسين الأدب الفلسطيني، ورغم أن من أطلقوا ذلك الوصف هدفوا لتشويه سمعتي، فإنني لم أغضب منهم، بقدر ما

حزنت على حال يسار يرفض النقد، حتى لو جاء من أحد كتاب الثورة، رغم أن الأمراض التي تستدعي العلاج ماثلة تحت أنظارهم، وتستحثهم للعلاج قبل أن تؤدي إلى خسارات فادحة، وهو ما حصل للأسف.

لقد آمنت دائما بأن للرواية دورا نقديا، وهذا ما أثر على مسار حياتي، وعلى رؤيتي، وحتى على علاقاتي، ولعله تسبب في خسائر لي، لا آسف كثيرا عليها، فالكاتب لا يجب أن يُفاجأ، أو تهتز ثقته بنفسه، عندما يتعرّض لخسارات.

لا أملك وجهة نظر محددة حول كتابة الرواية، ولا أختزن في ذاكرتي مقولات لنقاد عالميين حول فن الرواية، وشروط الكتابة الروائية، وأحسب أن الروائي – أي روائي – سيسهم في تطوير الفن الروائي بما تقدمه أعماله الروائية تقنيا، ورؤية، دون تنظير.

يمكنني القول بان الفن الروائي لا تحده حدود، فهو شاسع، وممتد، وفضاؤه بلا حدود، وهذا ما أغناه، ومنح الروائيين (حرية) بلا حدود في استنباط أشكال روائية غير مألوفة، أسهمت في تطور الكتابة الروائية.

ولكنني أتحرز بالقول: هذه الحرية في الكتابة الروائية لا تعني أن أي كتابة يمكن أن تكون رواية.

كتبت روايتي الأولى كما لو أنني أحكي حكاية، بحوارات عامية فلاحية، ولكنني انتقلت في روايتي الثانية (البكاء...) إلى تقنية (الأصوات) لأنني وجدتها الأنسب لنقل عالم الرواية للقارئ، ناهيك عن

إنها تريحني من اللجوء للسرد البطيء الممل، في حين أن الأحداث كانت تجري سريعة.

في روايتي (العشاق) استخدمت تقنية مختلفة عن روايتي السابقتين، إذ وضعت لها مدخلاً تاريخيا جغرافيا حضاريا، ليكون مهادا تنبني عليه أحداث الرواية المعاصرة، وجعلته أشبه بنشيد أمام عظمة مدينة عريقة هي مدينة (أريحا) الكنعانية الفلسطينية التي عشت فيها سنوات الطفولة. انتقلت بعد المدخل التمهيدي إلى زمننا، فكان السرد الذي يعبّر عن واقع معاش، يقدم شخصيات قريبة منّا، في لحظة زمنية فارقة حاسمة، هي أيام حرب **67**، وانبثاق المقاومة من تحت حطام الهزيمة.

هذه الرواية اختارتها لجنة من اتحاد الكتاب العرب واحدة من أهم مائة رواية عربية في القرن العشرين، وهذا الأمر سرني لأنه حدث دون علمي.

عشت معركة بيروت عام **1982**، وكنت أقدم برنامجا في إذاعة صوت الثورة الفلسطينية باللهجة العامية الفلسطينية، وأشارك في هيئة تحرير صحيفة (المعركة) اليومية التي ضمت عددا من الكتاب والصحفيين والفنانين من عدة أقطار عربية.

كتبت يوميات سريعة تحت القصف، في لحظات مختلسة، وبعد رحيلنا عن بيروت عكفت لستة أشهر على إعادة كتابة اليوميات، والتي صدرت في كتاب بعنوان (آه يا بيروت)، والذي صدر حتى يومنا بست طبعات،

وترجمت فصول منه، ومنحت عليه وسام (المنظمة العالمية للصحفيين: يوليوس فوتشيك) عام **1983**.

بعد أربع سنوات من الجهد المضني، وكنت أتنقل من بلد إلى بلد، أنجزت روايتي (الرب لم يسترح في اليوم السابع)، وهي رواية الخروج من بيروت إلى تونس، تحديدا ميناء (بنزرت)، في السفينة (سولفرين)، وكنت واحدا من ألف ومائة فلسطيني حملتهم تلك السفينة.

بعد تفجر الانتفاضة الفلسطينية الفلسطينية الكبرى نهاية **1987**، ولأنني عشت في (أريحا) و(الخليل) و(بيت لحم) و(أريحا)، وأعرف نابلس إلى حد ما، وطبعا أعرف شوارع القدس القديمة، فقد تنقلت مع أحداثها، وناسها، وأبطالها، وشهدائها، ودوَّنت ملاحظات كثيرة، وأجريت بحثا مطولاً عن كل شيء في الضفة الفلسطينية، وجمعت معلومات عن المستشفيات، والشوارع، والناس، لأكتب بعد الجهد المضني روايتي (شبابيك زينب).

لقد تعلمت أن الرواية تستدعي البحث الجدي، والتخطيط المعمق، والتحكم بالوقت، والتضحية بمتع الحياة اليومية، وهذا ما يعني الرضى بالعزلة عن طيب خاطر.

كنت طيلة الوقت، وأنا أكتب تلك الرواية أسأل نفسي: كيف يمكن أن أنقل القارئ إلى شوارع نابلس، وأجعله يشعر بسرعة الحركة، ناهيك عن قراءتي للتحولات الاجتماعية في خضم أحداث الانتفاضة، والحب

الذي يشتعل في قلوب شبابها، وصراعات المجتمع الفلسطيني بين المحافظة والانفتاح، في زمن الاشتباك مع الاحتلال، وما ينجم عنه من تراجيديا دامية، وتغيرات اجتماعية حادة.

زرت الضفة الفلسطينية عام **1995**، وكتبت عملاً بعنوان (رائحة التمر حنة) عن الناس، والمكان الذي غادرته قبل قرابة ثلاثة عقود حافلة بالحروب والمعارك والمآسي والغربة.

بحثت (عني) هناك في مدن عشت قربها في مخيمات اللجوء، عن المكان وما جرى له، وعليه، من تشويه أحدثه الاحتلال الاستيطاني، عن الطفل الذي كنته في المخيمات، عن ناسي الذي رحلوا، أو تفرقوا، أو بقوا متشبثين بالمكان.

هل كتبت (شيئا) من سيرة حياتي، أم سيرة الأرض والناس، أم...؟

كتبت (رائحة التمر حنة) كما كتبت (آه يا بيروت)، ولم أصنفهما، ولكن هناك من اعتبرهما روايتين تسجيليتين، رغم أنني لم أضع على غلافيهما ما يشير إلى جنسهما الأدبي.

شغلني منذ سنوات سؤال (الهوية) خاصة وأنا أرى الفلسطينيين ينجبون في المنافي أطفالاً يعيشون في بيئات غير عربية، وهؤلاء يتعلمون لغات الأقوام الذين يعيشون بينهم، وعاداتهم، وأساليب حياتهم.

وشغلني أيضا: دور الإنسان الفلسطيني، الذي يخرجه من حالة المشرّد واللاجئ المثير للشفقة، إلى الإنسان الفاعل، المؤثر، المتجاوز لشروط النفي والعطالة التي تراد له بهدف تغييبه تماما، لإنهاء قضيته.

شغلتني التحولات الاجتماعية الحادة في بلاد العرب، ولا سيما في المشرق العربي، حيث ولدت، وما زلت أعيش، وأعايش، فكتبت رواية (سأرى بعينيك يا حبيبي).

أود أن أطرح سؤالاً: ماذا يرد إلى الذهن عندما يسمع هذا التعبير: كاتب فلسطيني؟

إنه يكتب عن فلسطين، ولكن عمّاذا يكتب الروائي العربي المنتمي لبلد عربي، وبيئة عربية محددة؟ إنه يكتب رواية، فيها أحداث، وصراع، وأشخاص يواجهون مصائرهم، أشخاص يحبون ويكرهون، يجبنون ويشجعون. يتحدون فينتصرون أو ينكسرون. يسقطون اجتماعيا أو يقفزون بانتهازية. يقاومون أو يخنعون ويعيشون أذلاء.

مواضيع الرواية متشابهة، وإن اختلفت المعالجة، وتطورت المواضيع بحسب الزمن، والبيئات، وأنماط الحياة، وسيادة المفاهيم.

لعل الروائي الفلسطيني يتوفر على تجارب نادرة غالبا، وهي مفزعة، ومفجعة، وملهمة، والكتابة تجربة، فكاتب بلا تجارب هو كاتب إنشاء، ونسّاخ عن غيره، و(متوهم) يكتب من (الخارج) دون خبرة ومعاناة ومعرفة.

لا رواية فلسطينية تشبه الأخرى، وهذا لأن التجارب الشخصية لروائيينا متباينة، ورؤاهم مختلفة ومواهبهم مختلفة، وهذا ما يغني (روايتنا) الفلسطينية التي هي أحد الروافد التي تصب في نهر الرواية العربية وتغنيه.

الحضور الكرام ..

نحن الروائيون الفلسطينيون نحمل قضية واحدة، ولكننا نعيش في أمكنة متباعدة، فمنا من يعيش تحت الاحتلال في وطننا فلسطين، ومنّا من يعيش في مغتربات عربية قريبة، أو أوربية وغربية بعيدة.

نحن لا نلتقي إلاّ صدفة، ونخضع لشروط العيش في بيئات مختلفة، يتأثر من يعيش فيها من مبدعينا.

وبقدر ما إن هذه الغربة موجعة، فإنها تغني تجاربنا، وتوسع اطلاعنا، وتصب في خدمة روايتنا العربية.

آمل أن أكون قد قدمت لكم لمحة عن رحلتي الروائية.

.....

*شهادة أدبية في الخرطوم، جائزة الطيب صالح العالمية للإبداع الكتابي، الدورة الثالثة

حديث في الثقافة والخصوصيّة الفلسطينيّة

بطبعي أميل للابتعاد عن التنظير، وحشد الأسماء والمصطلحات والمراجع في مشاركاتي الأدبيّة والسياسيّة، ليس تقليلاً من أهمية التنظير والمنظرين، ولكن، وكما يقال، لكل شيخ طريقة، وطريقتي أنني أقرأ، وأتأمل، ثمّ أهضم، وأتبنى ما أراه مناسبا، وقد أضيف إليه بحيث يخدم قناعاتي التي أرى أنها لا تخصني كفرد.

لدي دائما الاستعداد وبتواضع لتغيير بعض ما أتبناه، باستثناء ما هو جوهري، أقصد إيماني بعروبة وطني فلسطين، وبحّق شعبنا الفلسطيني، وواجبه في المقاومة، والانتماء لأمتنا العربيّة الواحدة، وأن قضية فلسطين هي سؤال التحدي المطروح على الأمة التي لن يكون لها مستقبل بدون فلسطين حرّة، وهو ما لن يتحقق بدون إلحاق الهزيمة التامة والنهائيّة بالكيان الصهيوني، واجتثاثه من قلب وطننا العربي، وعودة فلسطين لتكون صلة الوصل بين جناحي وطننا العربي الكبير، وأمتنا الواحدة.

قبل سنوات بعيدة بحثت عن تعريف مانع جامع لمفهوم (الثقافة)، فوجدت عشرات التعريفات، وبينها تباين، واختلاف، وأحيانا تناقض.

آنئذ استوقفني تعريف رأيته ينطبق إلى حد ما على حالتنا الفلسطينية، وقد استقاه صاحبه من حالة الهنود الحمر المجتثين من جذورهم وفقا

لمخطط الاستعمار الإسباني الذي اجتاح قارتهم، وفرض عليهم، لتغريبهم عن جذورهم، وبترهم من انتمائهم، اللغة الإسبانية، بحيث أنهم باتوا غرباء عن تراثهم الثقافي، تائهين ضائعين منبتين، لا يشعرون بانتماء، والأخطر: لا يشعرون بالكرامة.

رأى ذلك الباحث أن الثقافة تعني الكرامة الإنسانيّة.

أذكر أن أحد الأشخاص تساءل مستنكرا: هل تقصد أن الشعب الفلسطيني بلا كرامة؟!

جهل ذلك الشخص أن الاستعمار عمد دائما إلى مسخ الشخصية الوطنية في أي مكان احتلّه، ليكسر روح المقاومة والكبرياء لدى ذلك الشعب، والصهيونيّة هي أشرس استعمار إحلالي عمد منذ البداية إلى اقتلاع الشعب الفلسطيني من أرضه، وما زال يعمل بضراوة لاستكمال الترانسفير الاقتلاعي، لامتلاك الأرض، ورواية التاريخ من وجهة نظره، مراهنا على ذوبان الشعب الفلسطيني في محيطه العربي، وفي المنافي والشتات البعيد.

تعريفات الثقافة كثيرة، وواحد منها يقول، بحسب إدوارد تايلور في كتابه (الثقافة البدائيّة): الثقافة هي كل مركب يشتمل على المعرفة والمعتقدات، والفنون والأخلاق، والقانون والعرف، وغير ذلك من الإمكانات أو العادات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضوا في مجتمع.

وثمة تعريف أبسط وأكثر وضوحا لأحد علماء الاجتماع المحدثين هو روبرت بيرستد: إن الثقافة هي ذلك الكل المركب الذي يتألف من كل ما نفكر فيه، أو نقوم بعمله، أو نتملكه كأعضاء في مجتمع.

يُقّر أصحاب مقدمة كتاب (نظرية الثقافة) بـــ: ليس في نيتنا أن نغرق القارئ في تعريفات الثقافة التي لا حصر لها، والتي قد طرحت وجرّبت دون أن يتحقق اتفاق بين الباحثين. (ص31)

اتفاقا مع ما جاء في مقدمة ذلك الكتاب المهم، فإنني أنأى بنفسي عن الغوص في التعريفات، ولذا سأنتقل إلى ما يعيننا على فهم الثقافة، ودور المثقف، وهي العلاقة بين الثقافة والمجتمع.

يرى علماء الاجتماع أن الثقافة لا توجد إلاّ بوجود مجتمعات، فهي ظاهرة اجتماعية، وهي ترتبط بالإنسان وتميزه عن باقي المخلوقات.

من هنا أنطلق، فلا توجد ثقافة بدون مجتمعات مهما كانت بدائية، فالثقافة لا ترتبط بالمجتمعات المعاصرة، المتطورة، والتي تمتلك العلم والمعرفة.

لنتأمّل واقع الشعب الفلسطيني، على أرض فلسطين التاريخيّة يعيش قرابة نصف الشعب الفلسطيني، ولكنه يعيش ممزّقا جغرافيا واجتماعيا. فثمّة فلسطينيون يعيشون تحت الاحتلال منذ نكبة الـــ 48. وهناك فلسطينيون يعيشون في قطاع غزّة ليس لهم منفذ سوى عبر الحدود مع

مصر. أمّا الفلسطينيّون في الضفّة الفلسطينيّة فهم محاصرون بالاحتلال، وبوابتهم الوحيدة عبر الجسر الذي يصلهم بالأردن.

قرابة نصف الفلسطينيين يعيشون في الشتات والمنافي البعيدة، بين أقوام حضاراتهم ولغاتهم وثقافاتهم مختلفة، وهذا يدفعنا للتفكير في الأجيال التي تتوالد هناك في أوروبا، وأمريكا، وحتى في أمريكا اللاتينيّة.

السؤال: ما الثقافة التي ينتجها الفلسطينيّون، ما داموا لا يعيشون على أرضهم الواحدة، في بيئة واحدة، في ظروف تجمعهم، وتحديات توحدهم؟

ثمّ: ما الثقافة التي تبقى رابطا بينهم، ما دام الآباء والأمهات يموتون ويرحلون بثقافتهم، ويخلفون وراءهم أبناء وبناتا يتكلمون لغات الأقوام التي يعيشون بينها، وقد يفقدون في غربتهم لغة آبائهم وأجدادهم؟!

أذكر عندما كنّا في تونس أن وفدا قدم من أمريكا اللاتينيّة، ضمّ عددا من فلسطينيين التشيلي – التي تضم أكبر جالية فلسطينيّة في أمريكا اللاتينيّة – وقفت فتاة فلسطينيّة صحفيّة، وحاولت أن تتكلّم بالعربيّة، ولكن أُرتج عليها، ولم تجد الكلمات كونها لا تعرف سوى مفردات قليلة جدا، فانفجرت بالبكاء!

عندئذ تذكرت صيحة مالك حداد: الفرنسية منفاي!

ولعلي أنا وأنتم نتذكّر تعبيرا لكاتب جزائري آخر: الفرنسية غنيمة حرب!

الفلسطينيّون يرفضون أخذ (العبريّة) غنيمة حرب، فهم لم يستبدلوا العربيّة التي تضعهم أمام مواجهة حضارية وثقافية ووجودية.

لا بأس.. تلك الفتاة الفلسطينيّة التي تعيش فلسطين في روحها، والتي ورثتها قضية وانتماء من الأب والأم، تتكلم الأسبانية، وهذا طبيعي، ولكنها وهي تنتمي لفلسطين خسرت أوّل مكونات الثقافة العربيّة الفلسطينيّة: اللغة العربيّة، وكانت تلك واحدة من أهم خسائر المنفى.

مجتمعنا مشتت داخلا وخارجا، فما الثقافة التي تجمعه، توّحده، تصله ببعضه بعضا، تبقي هويته وقضيته في نفوس وعقول الأجيال؟!

ولكن هذه الثقافة التي هي عادات، وتقاليد، ومعرفة، ولغة، وأساطير، وإبداعات، وموسيقى، وغناء، وحكايات، وأنماط حياة، تتجلّى سلوكا، وأساليب حياة لن تتوفر لشعبنا المتناثر في أربعة جهات الدنيا!

هنا السؤال: كيف إذًا نحافظ على ثقافة شعبنا؟

أذكّركم بأن غولدا مائير راهنت على انقراض الفلسطينيين بموت الآباء، ونسيان الأبناء.

ثقافتنا هي التي تبقي الذاكرة، وتصون الانتماء لفلسطين، وتحمّل الأجيال عبء القضية بوعي، وتفشل رهانات الصهاينة على نسيان واندثار الأجيال الفلسطينيّة.

الثقافة هي التحدي، بها نصمد، ونبني، ونتطوّر، ونديم وحدة مشاعر شعبنا وإيمانه وقوّته، وهي سلاحنا للتغلّب على تمزيق شعبنا، ومحاولات طمس هويته، و(دمجه) بالمجتمعات التي يعيش بينها على حساب هويته.

انتبهوا للمصطلح الذي يطلق على اليهود في الغرب، في أي بلد غربي، من أمريكا حتى ألمانيا: الجالية اليهوديّة!

أترون: الجالية..الجاليات اليهودية! علما أن أولئك اليهود هم ألمان، وأمريكيون، وإنكليز، وهولنديون، وروس.. الخ.

أما نحن الفلسطينيين فمطلوب منّا أن نذوب باختيارنا، أو رغم أنوفنا، بجواز السفر، أو بلقمة الخبز والإقامة، عن سابق تخطيط لإنهاء القضيّة نهائيّا.

هنا بالضبط يأتي دور الثقافة، الثقافة الوطنيّة الفلسطينيّة، الثقافة الهوية، الثقافة الدور الذي وضعتنا أمامه مُخططات ومؤامرات وحروب احتلال، والتي ما زال شعبنا يتصدّى لها بتحد وبروح مقاومة، لا بالبندقية فحسب، ولكن بالمعرفة، بالوعي، بالمهمات التي ندركها جيدا، وأولها أن علينا أن نبقى في حالة مواجهة مع عدو يعمل على اقتلاعنا بالكامل من أرضنا، عدو لا يمكن أبدا أن نصل معه إلى نهاية للصراع سوى باقتلاعه من أرضنا، وتحرير وطننا فلسطين بالكامل.

هنا لابُدّ من التوقف قليلاً، حتى لا نتهم بالإقليميّة، وهي تهمة يوجهها لنا عتاة الإقليميين الذين يشددون الخناق على الفلسطيني، ويبذلون جهودا محمومة مأجورة لمسخ شخصيته، وتغييب هويته، ووعيه، ودوره.

نحن نرى أن فلسطين هي قضية الأمة، جماهير الأمّة، ملايين العرب بين المحيط والخليج، وهي بالتجربة ليست قضية الأنظمة التي اختبرت وجرّبت، فكانت وبالاً على القضية، وعلى كل قضايا الأمة، وفي مقدمتها: الوحدة العربيّة، وبرهنت على أنها حارسة سايكس بيكو، ومعمقة الإقليمية، ومفاقمة شرورها بتفريخ المزيد من الكيانات الإقليمية التي ما أن تلد حتى ترفع شعارها المريض: ..أولاً! وليس العروبة أولاً كما كان شعار القوميين في النصف الأول من القرن العشرين، والذي كان عنوانا لكتاب المفكّر الدكتور قسطنطين زريق!

غياب المشروع القومي لتحرير فلسطين، لا يدفع، ولم يدفع شعبنا للنكوص عن دوره، ولا لليأس والتخلّي عن قضيته، فهو بقى دائما حارس الجسر، وخط الدفاع الأوّل عن بلدان المشرق العربي، وحتى المغرب العربي البعيد مسافةً، وغير البعيد عن الأطماع الصهيونيّة والإمبريالية.

لابُدّ من أن ننتبه إلى ما يفعله عدونا، الحركة الصهيونية، والكيان الصهيوني، مع يهود العالم، والذي لا يخفى على مثقفينا.

تتواصل الحركة الصهيونية مع يهود العالم، فتوجه أنظارهم إلى (الكيان الصهيوني) على أنه دولتهم، ومستقبلهم، وكيانهم، وملاذهم، وتحضهم على (الهجرة) إليه، أو أقله التبرع باستمرار لتقويته في وجه (العرب) الذين يحيطون به، ويتهددون بقاءه.

إنهم ينتزعون اليهود من مجتمعاتهم، ويربطونهم بالكيان الصهيوني، ويحقنون رؤوسهم بثقافة تجعلهم يسخرون ولاءهم لذلك الكيان.

بينما نحن وضعنا يدعو للحزن، والألم، والغُصّة.

هناك تجمعات فلسطينيّة تعمل وحدها، بجهدها، بما يتيسّر لها من إمكانات، دون تواصل جدّي من جهة تقود وتوحّد الجهود، فالجهات كثيرة، وهي لا تقدّم شيئا يذكر، وكل ما يهمها أن تطلب المال، أو حتى تفسد بإرسال المال لبعض الأشخاص الذين تشتريهم، وبهذا تزرع بذور التنافر، وحتى الكراهية، والتنافس بين الفلسطينيين، والعناصر التي يفترض أن تكون نشيطة وفاعلة ومحترمة وصادقة ونزيهة الوطنية.

شخصيا لمست حالة التفكك والتنافس والتنابذ وتبادل الأحقاد، في زياراتي المتعددة لبعض الدول الأوربيّة، فما يفترض أنه المركز الموحّد والقائد، هو الذي ينفخ رياح الفرقة، ويمزّق الصفوف، فلا الجاليات موحدة، ولا هي قادرة على التفاعل مع المجتمعات التي تعيش بينها.

هذا لا ينفي أن هناك من يعملون من خارج الأطر المتعصبة، والراشية، والمُفسدة، وهؤلاء يعانون من حصار المتصارعين وتآمرهم.

لقد تفاقم الأمر بعد بروز سلطة أوسلو، وما زرعه أوسلو من أوهام، وعلى الأرض ما نشره من فساد، ومن ثقافة السلام الزائف، والارتماء في أحضان العدو الصهيوني والتنافس على العلاقات معه والظفر بالمكاسب وبخاصة من أركان تلك السلطة.

أنتم تتابعون تفشي وانتشار ما يُسمّى بالمنظمات غير الحكوميّة، التي تموّل من الدول أوروبية، وكندا، وأمريكا، والتي استقطبت كثيرا من الكوادر المتعلمة والمثقفة التي تضع علمها، وثقافتها، ومعرفتها بمجتمعنا بأمرة الممولين، وتقدّم لهم الدراسات والتقارير والمعلومات عن كل جوانب حياة مجتمعنا وثقافته، من طقوس جني الزيتون، إلى العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة في الريف.. لماذا تهتم الجهات الممولة بهذا؟!

لا يتساءل مثقفو حقبة أوسلو، ولكنهم يبررون صنيعهم بأنه خدمة للمجتمع المدني، وللنمو الديمقراطي، وتقدّم على طريق السلام، وحوار مع الآخر!

والآخر هو مصطلح ازدهر في حقبة أوسلو، والآخر هو الصهيوني الذي يحتل الأرض، يغتال، ويعتقل، ويجتث الزيتون و (الحوار معه، والتعريف به ضروري!)

ولكن الأخ الفلسطيني في هذه الحقبة تحوّل، ليس إلى خصم، بل إلى عدو يقف عقبة في طريق التعايش والسلام مع (الآخر)!

يكتب الدكتور علي أومليل في مدخل كتابه (السلطة الثقافية والسلطة السياسية) ما يلي: إن عبارة (دور المثقف) ليست من العبارات التي نستطيع أن نقول إنها وجدت دائما، بل هي عبارة تُحيل إلى مفهوم حديث للكاتب صانع الأفكار ومروجها، وإلى وعي هذا الخير دوره في التأثير في الواقع باتجاه التغيير نحو ما يراه أفضل.

وعن المثقف يكتب: في القرن الثامن عشر الأوربي بالذات، تبلور وعي جديد للكاتب وهو يتحدث عن ذاته: فهو صاحب معارف جديدة يكون العلم الحديث مرجعيتها في إثبات الحقائق، وهو ذو فكر فلسفي نقدي لم يعد منفصلاً عن العالم، بل يحلل به تحليلاً نقديا بنية المجتمع ونظام السياسة ويعيد بناءهما. وهو قد أصبح يعي قوّة الرأي العام، ويتحدث عنه، ويعوّل عليه ليدعم به سلطته الفكرية. (ص**9**)

بعد هزيمة حزيران، انبعثت المقاومة الفلسطينيّة، وكانت عديد الفصائل تعمل سرّا، وتعتمد في تثقيف (عناصرها) على مقولات وطنية جامعة.

ولكن ما أن ظهرت تلك الفصائل على الأرض، وانتقلت إلى العلنية، وتعرّف أعضاء التنظيم على بعضهم، وهبّت رياح الثورة، وبدأت عملية التواصل مع الجماهير الفلسطينيّة، والعربيّة، حتى بدأت الأفكار تفصح عن نفسها، فالمبادئ البسيطة لم تعد كافية، والقادة ما عادوا يحظون كما في ظروف السريّة بالغموض والهيبة والتبجيل، إذ أن كثيرين اكتشفوا في أنفسهم قدرات وطاقات أكبر نظريا وميدانيا.

بدأ صراع الأفكار، ومن بعد صراع مراكز القوى، وهبّت رياح الأفكار الثوريّة، وتدفقت الأموال، والأسلحة، واستغلت عواطف الجماهير الفلسطينيّة والعربيّة، وبدأت عملية تفريخ المنظمات، حتى إننا بتنا نرى اسما جديدا صبيحة كل يوم في فترة ما بعد 5 حزيران.

في مقدمة من توافدوا للانضمام للثورة، كان المثقفون الفلسطينيون: كتاب، شعراء، فنانون، أساتذة جامعيون، طلاّب جامعات قطعوا دراستهم وعادوا ليقاوموا مع شعبهم، صحفيون، موظفون في وظائف رفيعة تخلّوا عن وظائفهم وأعمالهم في بلدان الخليج، وفي بلدان المشرق العربي.

تضخمت التنظيمات، وانتفخت، وسمنت، ولكن بدون (تنظيم)، ولا حوار جدي داخلي، ولا قدرة على الاستيعاب.

تلك حقبة تستحق الدراسة والتقييم، ولكن فصيلا واحدا لم يفعل، فكلها مرّت بكلام إنشائي، وبرأت نفسها، و.. حافظت القيادات على مواقعها حتى يومنا، إلاّ الذين رحلوا شهداء، أو بموت طبيعي.. يرحمهم الله جميعا.

بعد أحداث أيلول، واقتلاع المقاومة من الأردن، كان الانتقال إلى لبنان، مع تواجد بارز في سورية، وكانت حقبة جديدة.

إذا كانت المرحلة الأولى قد بدأت بالحماسة للمقاومة، والاندفاع للاستشهاد على أرض فلسطين وبدء الهمهمة والغمغمة بالنقد، وطرح

أفكار ثورية تتجاوز الخطاب الحماسي التحريضي والتعبوي، فإن مرحلة (الفاكهاني) قد شهدت صراعات حادة، وانقسامات، بل وحتى صراعات مسلحة، تحديدا بعد حرب تشرين **1973**، وبدء طرح (الدولة الفلسطينيّة) على أي شبر ينسحب منه (الاحتلال)، و(السلطة الوطنية المقاومة) وغيرها من المصطلحات التي تصّب كلها في بدء التخلّي عن تحرير فلسطين، والتنظير للحّل المرحلي، أي التنازل عن فلسطين الجغرافية والتاريخيّة.

في تلك الفترة الفاكهانية، حاولت القيادة المتحكمة المتنفذة فرض خطابها بشتّى الأساليب: من القوة إلى الرشوة بالمناصب والمال، والاستبعاد من المواقع. حصل هذا مع العاملين في مجلّة (فلسطين الثورة) الناطقة بلسان منظمة التحرير الفلسطينيّة، والذين أبدوا معارضة للخطاب الرسمي!

السلطة السياسية عربدت في الساحة، وعمدت إلى استبعاد رجال الفكر والثقافة، وبرزت منذ تلك الفترة مصطلحات تحقّر الثقافة والفكر: الكلاموجيا، التحشيش الفكري، العدمية الوطنية – هذا وصف أطلق على من يؤمنون بتحرير فلسطين – وفي هذه الهوجة الغوغائية انخرط كتّاب وصحفيون وإذاعيون وشعراء.. وضعوا أنفسهم في خدمة قيادتهم، والحقّ أنهم كوفئوا على تأجير عقولهم، وضمائرهم!

رغم الإرهاب الذي شُنّ على أصحاب الرأي، برزت أصوات قاومت في داخل الفاكهاني، ومن خارجه، كتابة، شعرا ونثرا.

كنت أحد الذين طرحوا (دور المثقف)، وكتبت آنذاك روايتي (البكاء على صدر الحبيب) التي صدرت في العام **1974** وأثارت ضجّة، وحوارا، وفيها فضحت الفساد والخراب والانحراف، وهذا ما أثار غضب القيادة الرسمية، واضطرني لمغادرة بيروت مع أسرتي، والإقامة من جديد في مخيّم (اليرموك) الملاصق للعاصمة السورية (دمشق).

من ينسى رسومات ناجي العلي في تلك الفترة، وما بعدها، والتي أرقت تلك القيادة المتساوقة مع أطروحات التسوية التي بدأت تهّب من نظام السادات الذي توّج مسيرته بكامب ديفيد الذي مزق الأمّة، وأضعف مقاومتها، وأدخل أعداءها إلى داخل بيتها، وفتح أبواب مصر لأمريكا والصهيونيّة، وأخرجها من الصراع والدور، وأفقدها الوزن والهيبة!

الجهل بمنظمة التحرير، ومؤسساتها!

يجهل كثير من المثقفين الفلسطينيين دورهم ويكتفون بكتابة (نصوص) عن فلسطين، عن حبهم لفلسطين، عن الانتفاضة والحجر، وعن غزّة التي تُحاصر، ويكتفون بهذا، وهو لا يكلفهم شيئا!

منذ كنّا في بيروت، وقبل بيروت حتى، كتبت عن الدور النقدي للمثقف، أي المواجه، الرافض، المعارض، المتصدّي، مع تفاقم الخراب، والفساد، والإفساد، والتزوير...

المال الذي هو عصب الثورة أستخدم لتخريب عصب الثورة، وعقلها، وروحها، خدمة للفرد المتحكم، والفصيل المهيمن، والأفراد الذين يحتكرون القيادة.

العمل العسكري الذي بدأ مبشرا، حُوّل بسرعة إلى بلاغات فيها الكثير من التزوير، والادعاء، والكذب، وخلق أبطال وهميين مزورين أدعياء.

هنا أتوقّف لأذكّر بالدراسات النقدية التي كتبها العميد الركن محمد الشاعر، وفضح فيها بالأرقام التزوير المخزي للعمليات الوهميّة القشرية!

منذ استولي على منظمة التحرير الفلسطينيّة في العام 68، بعد عملية التخلّص من مؤسس وباني المنظمة الأستاذ أحمد الشقيري، وما يمثله، بدأت مسيرة الهيمنة على المنظمة، وإفراغها من مؤسساتها التي بُنيت بجهود مثقفين مشهود لهم، يتقدمهم الدكتور المفكر أنيس صايغ، مؤسس مركز الأبحاث، ومجلة "شؤون فلسطينيّة".

هنا أتوقف لسرد حكاية ذات معنى ومغزى. تمّ تحديد موعد من ياسر عرفات (رئيس المنظمة) للدكتور أنيس صايغ فتوجَّه إلى مقر عرفات، وكان الموعد في الساعة الثامنة مساءً. انتظر الدكتور أنيس خمس دقائق، ثمّ وهو ينظر في ساعته، أبلغ سكرتير عرفات بأن يبلغه بأنه حضر، وانتظر خمس دقائق، وأنه غادر لأن لديه عملاً ينتظره!

ثارت ثائرة عرفات الذي اعتاد أن ينتظر عند بابه قادة وكتاب وصحفيون، وكان يضمر حقدا على هذا المفكر المؤسس الكبير، ويعتبره من (بقايا) مرحلة الشقيري. وبقية حكاية الاستيلاء على مركز الأبحاث وإفراغه من دوره معروفة!

وبالمقارنة، فالدكتور أنيس يكتب عن الأستاذ الشقيري بأنه ظل يتابع منجزات مركز الأبحاث، ويحرص على زيارته، والاطلاع على أبحاثه، واقتناء كتبه التي يصدرها في شتى مجالات المعرفة بالعدو.

لقد هيمن السياسي على الثقافي، وإن لم يتوقف الصراع، ومن يتابع مسيرة الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين سيتعرّف على جانب مهم من جوانب صراع المثقف مع السياسي الجاهل قصير النظر، ضحل الثقافة.

تلكم قيادة الفرد والفصيل وتمزيق وتدمير منظمة التحرير الفلسطينيّة، وهي تستحق منّا وقفة مطولة، وأسئلة يتقدمها السؤال المهم: هل ما زالت المنظمة موجودة حقا، أم إنها واجهة، وغطاء، لفصيل بعينه؟!

أنتم تعرفون ما آل إليه مركز الأبحاث بعد الاحتلال الصهيوني لبيروت وبعد صفقة تبادل الأسرى وموجودات المركز التي رميت في مكان قفر في الجزائر، وأهملت، انسجاما مع سياسة قيادة أوسلو التي لم تشأ أن تستفز شريك السلام بالحقائق وبالوثائق، وبالخطاب الفلسطيني العربي ورؤيته للصراع!

حاليا برزت مراكز دراسات، وكلها لم تملأ الفراغ الذي تركه مركز الأبحاث، لأنها تعمل وفقا لنظرة ضيقة، تنطلق من أفق التنظيم، ومصلحته ليس إلاّ !

أصوات قليلة هي التي ترتفع فاضحة أوسلو وما يجرّه على قضيتنا الفلسطينيّة ومنتقدة للفساد المستشري لقيادة أوسلو، فالمثقفون غائبون، فاقدون للدور، ولا مبررات لأي منهم في هذا الغياب.

هناك أصوات ترتفع ناقدة لسلطة أوسلو، وهيمنة حماس على السلطة في قطاع غزّة، دون شريك، لأنها لا تقبل أن يكون لها شريك!

لا تؤمن حماس بالوحدة الوطنيّة، وهي تنطلق من مفهوم رديء عنصري متعصّب: من ليس معنا فهو ضدنا، حتى لو كان إسلاميا مجاهدا ومشهود له كالجهاد الإسلامي التي سبقت حماس في خيار المقاومة!

الصراع بين الطرفين: السلطة وحماس، يدور على من يمثّل الشعب الفلسطيني، وهما يتزاحمان على سلطة لا سلطة لها، سلطة ظهرت في كنف أوسلو وتحت مظلة اتفاقات أوسلو.

هؤلاء لا يمكن أن تؤخذ كتاباتهم على أنها ناقدة، مقاومة، رافضة للتسوية، فالطرفان يطرحان: دولة في حدود حزيران الــ **67** ما الفرق إذا؟! الطرفان يتنازلان عن هدف تحرير فلسطين وقضية فلسطين والصراع المفتوح المتواصل مع هذا العدو، عن فلسطين كوقف إسلامي!.

سياسة الطرفين تقسّم الشعب الفلسطيني، تفشي التعصّب، النبذ، الخوف، وتدفع الجماهير لليأس، والانفضاض عنهما معا، والعجز مؤقتا عن معاقبتها.

من وجهة نظري فإنني أرى أن عقابهما الحقيقي يكون بتجاوزهما، وتحقيق الوحدة الوطنية ميدانيا بين كل من يقاومون، وفي المقدمة أصحاب الخطاب المقاوم، وثقافة المقاومة.

هذا نقيض لسياسة إضاعة الوقت في لقاءات المصالحة والمصلحة، إضاعة الوقت على شعبنا، ومنحه لعدو يستولي على أرضنا وقدسنا يوميّا.

هذا نقيض لمن يتحدثون عن الوحدة في إطار منظمة التحرير الفلسطينية ويتجاهلون الميثاق وبناء المؤسسات.

هذا نقيض لمن يتحدثون عن أجهزة أمن هي في الجوهر عميلة للعدو الصهيوني، ولجنرالات أمريكا، وأجهزة المخابرات الأمريكيّة.

الثقافة السياسية فاسدة، عاجزة، متنازلة، ومروجوها ومن يتشبثون بها باتت لهم مصالح هم رهائن لها، ومن يدافعون عنها، وعنهم، منتفعون وتابعون، ومطبعون مع مؤسسات العدو وصحفييه وكتّابه!

مثقفو الصمت باعوا أصواتهم، وأقلامهم، وتخلّوا مبكرا عن دورهم، وانتهازيتهم أخطر من انحراف وانتهازية الساسة قادتهم الذين خيارهم التفاوض والتفاوض، أو اتهام المثقفين الثوريين الحقيقيين بـــ (العلمانية)

وبأنهم مثقفو منظمة التحرير الفلسطينيّة التي يريدون أن يرثوها ممن أفسدوها، لا لإعادة بنائها على أساس الميثاق، وروح الوحدة الوطنيّة، ولكن على أساس نابذ، تكفيري، عصبوي افتضح نموذجه في الهيمنة على قطا ع غزّة!

إن خصوصية القضية الفلسطينية، وتعقيدات النضال الفلسطيني، وتمزّق المجتمع الفلسطيني، وبؤس القيادات الفلسطينيّة، تضع المثقف الفلسطيني أمام خيار واحد: الدور النقدي العنيد وبلا هوادة، فالانحراف السياسي، والفساد الأخلاقي، والمالي، تفرض على المثقف الفلسطيني أن يرفع صوته فاضحا كل ما يتهدد وحدة شعبنا وروحه، وكفاحه، وجوهر القضية الفلسطينيّة.

في وقت مبكّر، تنبهت إلى الأمراض التي أطلّت علينا بسرعة بعد انطلاقة المقاومة الفلسطينيّة: الخطاب الإعلامي الكاذب التلفيقي المُزيّف، وبزوغ مرض الفردية، والعصبية التنظيميّة، والنفور من المثقفين، ونبذ أي أطروحات فكرية. آنذاك كنت أحد الذين طرحوا مقولة: لا يكفي أن تكتب عن فلسطين، لأن دور المثقف الثوري أن ينتقد، ويتصدى ويواجه، ويتحمّل التكلفة مهما كانت فداحتها.

هناك كثيرون اكتفوا بكتابة نصوص شعرية، وقصصية وروائية، ورسموا لوحات، وكتبوا أناشيد وأغاني.. واكتفوا.كان هذا بعض الدور، النصف الناقص المريح غير المكلف...

كتبت مرارا، وقلت في حوارات: إذا كان السياسي يشتغل بالتكتيك، ويبرر لنفسه ما يفعل، فإن المثقف يتمسّك بما هو إستراتيجي، وفلسطين قضية إستراتيجية لا تحتمل المناورات، ولا التنازلات، ومن هنا يفترق المثقف الثوري الجذري مع السياسي، ويمضي كل في طريق، يواصل السياسي تنازلاته وألاعيبه، ويضاعف المثقف الثوري من شراسة نقده، وفضحه، وكشفه، ويعمل على أن يصل صوته إلى أبناء شعبه وأمته حيثما كانوا، بأقصى طاقته وقدراته.

قبل شهر تقريبا من هذه الندوة رأيت على فضائية فلسطينيّة محلية أحد (المثقفين) الفلسطينيين الانتهازيين السعداء بما يجنونه، يقول: السياسي الفلسطيني حُر فيما يفعل، ولكن نحن أيضا لنا هامشنا فنحن ننظر للثقافة من منظور إستراتيجي، ولسنا نلوم السياسي ولا نخونه!

صفقة رابحة يعقدها مثقف انتهازي، وهو غير وحيد في انتهازيته، ولا نادر، مع قيادته في السلطة، يبرر لها ما تفعل وتقترف بحق القضية، وهو يرى ويعيش في بقايا الضفة، والاستيطان، والحواجز، والجدار، والفساد، ونهب المال المتبرع به، ومال الرشى، ويناله نصيب في منصبه، فيبرر، ويقدم نفسه داجنا، متصالحا، غير مزعج.

لقد وجد دائما مثقفون من هذا الصنف يسبِّحون بحمد أولياء النعم، ووجد دائما مثقفون ناقدون عنيدون متمسكون بالمبادئ والدور وبالإخلاص للشعب والقضية، أذكركم ببعضهم: ناجي العلي، أنيس صايغ.. وهناك آخرون في حالة اشتباك دائم مثل الدكتور عبد الستار

قاسم وعادل سماره، وفي الشتات هناك عبد الباري عطوان، ونضال حمد، وأسماء كثيرة، وأنا فقط أُذكّر، وإن شئتم العودة إلى ما قبل النكبة، فأحسب أنكم لا تنسون أستاذ ناجي العلي، الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود، وإبراهيم طوقان، وخليل السكاكيني، وعبد الكريم الكرمي، ونجاتي صدقي.. لا، لم أنس غسان كنفاني، وسميرة عزّام، وغيرهما من المثقفين الذين أسسوا، ورحلوا على العهد...

وبعد: لا يكفي أن نتباهى بصلابة شعبنا، وبروح التضحية التي يتميّز بها، والتي بفضلها صان قضيته، فشعبنا راهنا يعاني من أخطار تتهدد وحدته، ومسيرته، وثقافته، والمواجهة لا تحقق الفوز بالجهود الفردية على أهميتها ونبلها وضرورتها، إذ لابُد من تكاتف جهود المثقفين الثوريين العضويين، والمناضلين الصادقين المتمسكين بفلسطين قضية وجود، في جوهرها يتحدد مصير ومستقبل الأمة، والمنطقة، والهيمنة الإمبريالية الأمريكية والصهيونيّة ومستقبلهما أيضا في العالم.

جوهر قضيتنا قومي وإنساني، ومن هنا تتجلّى ثقافة شعبنا، وكل من ينتمي لفلسطين، ويؤمن بها، ويضحي لأجلها: من راشيل كوري إلى أي إنسان ينتقد الصهيونية، ويتحدى الكيان الصهيوني بالانحياز لحق شعب فلسطين في وطنه وكفاحه المسلّح، وكل أشكال الكفاح التي كلّها مشروعة في مواجهة الصهيونية العنصرية عدوة البشرية جمعاء.

فلسطين القضية والشعب في حالة حصار، وعرضة لتصفية جدية تشارك فيها جهات عربيّة رسمية علنا، وتأخذها القيادات الفلسطينية

الغارقة في مسار أوسلو، والقيادة التي تخلّت عن عروبة فلسطين والمقاومة وتنخرط في الصراع على سلطة وهمية كاذبة بقصر نظر وانتهازية.

دور المثقف الفلسطيني ينتظره.. ولا عذر ولا مبرر للتقصير والتردد، وهذا الدور يحمله مثقفون عرب يرون في فلسطين قضيتهم، وهؤلاء لهم في فلسطين أكثر بكثير ممن ينتمون لها بالولادة أو النسب أو المصادفة، فالدور يُختار بوعي، وتُدفع تكلفته برحابة صدر ورضى وقناعة حبا لفلسطين وإيمانا بها، وانتماء للأمة العربية، والإنسانية جمعاء...

ثقافة شعبنا هي ثقافة المقاومة، فروح المقاومة تجمعنا، وبها نتغلّب على الاحتلال، والشتات، والمنافي، وبُعد المسافات. وهذه الثقافة تهّب عليها رياح التزييف، والتيئيس، والطمس، وهي تتطلّب من المثقفين الثوريين المقاومين (العضويين) أن يسهموا في أداء دورهم بشجاعة، بعمل جماعي يثمر، ينتج، ويستمّر...

يؤسفني أن الفصائل مقصّرة تماما تجاه ثقافة شعبنا، فهي تهتم بالدعاية لنفسها، تاركة مخيماتنا للخراب، لكّل أشكال الأمراض، مخيماتنا التي كانت قلب الثورة، والتي قدمّت أجيالاً من الأبطال، وملأت مقابر بيروت ودمشق وعمّان والأغوار وفلسطين... بالشهداء!!.

ترى: هل ستثير وجهة نظري هذه حوارا حول ثقافتنا، وأهمية الثقافة في معركة حريتنا وطنا وشعبا؟!

---

* نص محاضرة الكاتب في مركز (دراسات القدس) مساء 28 /1/ 2011.. مخيّم (اليرموك) – دمشق.

أحزان فدوى طوقان

إنها هناك في نابلس مدينتها العريقة، الكنعانية، العنيدة..

إنها هناك تذوي على دوي القنابل، وتفقد البصر مع تأجج لهيب النيران التي تحرق نابلس القديمة.

إنها هناك وحيدة مع الأيام، وهي ما عادت تكتب لكم شعراً بعد...

ألم تقرأوا آخر قصيدة بعثت بها إليكم من نافذة غرفتها، بين قذيفة وقذيفة، مستغيثة، ولا من مغيث...

ركض الوقت وخلّفني وحدي مع ظلّي في الدار

القانون الكوني تلاشى بدّده عبث الأقدار

لا جاذب يمسك أمتعتي لا جاذب يبقيها في الدار

داري ما عادت داري أو مصدر أمن واستقرار

أذكّركم: هذه الأبيات هي مطلع آخر قصيدة نشرت لفدوى طوقان، وعلى صفحات (القدس العربي) عدد **30** تموز**2002**

عندما قرأت القصيدة قلت هذه قصيدة الوداع، فشاعرة العرب، وابنة فلسطين، البنت النابلسية التي حُبست في البيت وحُرمت من

الذهاب للمدرسة بشبهة أن فتى رشقها بوردة، زرعت حقولاً من الأزهار، وأغنت بحور الخليل بن أحمد الفراهيدي بما لم يخطر بباله، وتتلمذت على رسائل شقيقها إبراهيم، وتوجيهاته الرفيقة، وعاشت للحزن، واللوعة، وامتزجت بمزاج مدينتها نابلس، تلك المدينة التي ولدت في برج (الجوزاء)، البرج الناري، والتي كان أهلها الكنعانيون، ما أن يستشعروا خطر الأعداء حتى يضرموا النيران في أعالي (عيبال) و(جرزيم) ليعود الفلاّحون من حقولهم، وليستعدوا للحرب دفاعاً عن أرضهم، وبيوتهم، وأسرهم.

قرأت في موسوعة (بلادنا فلسطيني) لمصطفى مراد الدبّاغ، أن نابلس تعرّضت عدّة مرّات للزلازل المدمّرة، وآخرها عام **29**، ولكن أهل نابلس لم يتخلوا عن مدينتهم المبنية على سفحي الجبلين، بل كلّما ضرب مدينتهم زلزال بنوا بيوتهم في مواقع أعلى، حتى صارت بيوتهم تنهض من القاع حتى القمتين..

أيكون أن المدينة – أقصد نابلس – هي فدوى طوقان؟ أم ترى أن فدوى طوقان هي المدينة؟!.

يوم **28** تشرين ثاني **98** كرّمت جامعة النجاح النابلسية العريقة، والتي ابتدأت مدرسة، فكليّة، فجامعة، ابنتها وشاعرتها، لتجشمها عناء (الرحلة الجبلية الصعبة)، وفوزها في امتحان الإرادة، والصبر، والتعلّم، والإبداع، والعطاء، فمنحتها شهادة الدكتوراة الفخريّة، ولقد كنّا هناك..

كنّا في ذلك اليوم العيد هناك، نحتفي بشاعرتنا، وحادية قافلتنا، ونموذج المرأة الفلسطينية التي فيها من خصائص شجرتي الزيتون والتين، أنها تفلق الصخر وتضرب بجذورها عميقاً، وتعطي أطيب الثمار، فضلاً عن إنها غير متطلبة.

صغيرة الجسم، وجهها يطفح بابتسامة رضى، وفي عينيها اللامعتين دهشة، وهي تنقّلهما على الوجوه، والفرحة تزداد مع رؤيتها لوجوه أحبّة وفدوا إلى نابلس من كل مدن وقرى ومخيمات فلسطين لتحيتها، وتقبيل يديها، ورؤيتها عن كثب...

ارتدت تلك الملابس الأكاديمية، وصعدت خشبة المسرح، فنهض الفلسطينيون نساءً ورجالاً، ومن كل الأعمار..

همس أحد الشعراء في أذني:

– كأننا نوّدعها!...

– بل نحن نزفّها...

لم تتزوج فدوى طوقان، ولم تنجب فهي ليست سيدتنا مريم، ولكنها أنجبت لنا كل هذا العطاء الشعري، وسيرة حياتها مرويّة كما كتبتها في جزئين، وما يعجز الكلام عن كتابته!

وهي في عقدها الخامس ذهبت إلى (أكسفورد) وتعلّمت اللغة الإنكليزية وآدابها!

ما كان لطموحها حدود، ولا لحبها لوطنها فلسطين تخوم، ففضاء فلسطين وسع الدنيا. وما كان (لعروبتها) أن تغيب للحظة عن روحها، فهي شاعرة العرب، شاعرة حزنهم، وألمهم، وأوجاعهم، وفجائعهم.. وهي مع كل هذا لا تنكسر!

هناك في نابلس ولدت، عام **1917**، وهناك تقضّي آخر أيامها..

فدوى طوقان! الفلسطينية المستغيثة ولا من مغيث، المتيّمة بالأطفال، ترى الأطفال والصواريخ تمزّقهم أشلاءً، وتبعثر دمهم في الخراب والركام، وتدفنهم تحت الدمار.

لا من مغيث! ولا من صوت عربي جسور يرتفع، فنحن نعيش في زمن العرب البائدة، العرب النافطة، وكيف يغيث صيحة العربية الفلسطينية من إرادته في (جيب السفير)..كما وصمهم (خليل حاوي) في إحدى قصائده:

ركض الوقت وخلّفني وحدي في الدار

ربّي لا تجعلني عبئاً تستثقله كل الأجيال

أنتظر بلوغي أرض الصمت أنتظر الموت

طالت دربي يا ربّي قصّرها واختصر المشوار

وجع فدوى ليس وجعاً شخصياً، إنه وجع شاعرة وطنها:

يوجعني الحكم الصهيوني وأوامر منع التجوال

يوجعني، لا بل يقتلني في وطني قتل الأطفال

هذه هي الوحشة، وهي وحشة شعب بأسره، وهي تذكّرني بقول مأثور للإمام علي كرّم الله وجهه، هو: آه من وحشة الطريق، وقلّة الصديق، وطول السفر.

طال سفر فدوى وشعبها، السفر الذي قل فيه الصديق، السفر الموحش في الزمن الخراب، زمن انعدام النخوة، زمن إغلاق حكّام العرب آذانهم وعيونهم، ونسيانهم التام بأنهم ينتسبون لهذه الأمة، هؤلاء (اليهوذات) الذين باعوا فلسطين وأطفالها، وأصابوا شاعرتها التي حذّرتهم من أن الشجر يمشي..

سألت عن فدوى طوقان، أمّنا التي لم تنجبنا، تلك التي صانت ذاكرتنا، وألهمتنا، فردّ علي الصوت من (رام الله):

- أخشى أن أحزنك كثيراً، فهي لا ترى تقريباً، وهي تسمع قليلاً، وهي معتكفة في دارهم القديمة بنابلس.

يوجعني الحكم الصهيوني!.. نعم يا أمنا فدوى.. نحن جميعاً في بلاد العرب تحت الحكم الصهيوني. أنت تموتين ببطء مع مكتبتك، وعودك الذي لم تعد تداعبه أناملك الرشيقة، ونحن نموت كل ثانية، فالآباتشي التي تقصف نابلس تتهيّأ لقصف بغداد، وهي لن تنطلق من مطار (تل أبيب)

ولكنها ستنطلق من هنا، من صحراء العرب التي أخترعت على رمالها دول لها أعلام لتبرير احتلال آبار النفط بقواعد أمريكية..

ممدوح عدوان: المبدع الذي سيعيش كثيراً

ها عمره يتقطّع

فلتبعدوا عنه أعين جيرانه

وارقبوه

سيرجع مزملاً

بأغانّيه العاتية

املأوا كأسه

وارفعوا النخب

والصوت عند العتابا

تروه أتى

مثل رائحة النار

في النسمة الآتية

هكذا يرثي ممدوح عدوان صديقاً له رحل في غير أوانه، في قصيدة عنوانها له دلالة كبيرة (مرثيّة لرجل مات كثيراً)، وفيها تضمين شعبي:

يا ميجنا.. يا ميجنا.. يا ميجنا

في زيارتي الأخيرة له، في بيته، التقيته وهو ببنطلون قصير وقميص نصف كم. بدا لي ممدوح ملاكماً عنيداً يأخذ استراحة بين جولتين.

جلسنا، وإذ نحن نرتشف قهوةً أعدتها رفيقة عمره إلهام (أم زياد). أخذت أتأمله، وفي سرّي كان اعتزازي به يتضاعف، لصلابته، وتماسكه، وإرادة الحياة التي تسنده في مواجهة المرض (الخبيث).

إنه ممدوح عدوان المقاتل الذي لم يولّ هارباً من الميدان، فارس النزال الأشّم، هو نفسه الذي رأيته للمرّة الأولى في (بوفيه) جامعة دمشق قبل نيف وأربعين سنة..

رأيته يومها يرفع الطاولات والكراسي، بعد أن تمّ إيقاف عمل مطعم البوفيه، وكفّ الغرسونات عن تقديم الشاي والقهوة للطلاّب والطالبات.

تحوّل البوفيه إلى مسرح، ووقف ممدوح في منتصف الدائرة وسط حالة صمت، ثمّ أخذ يتلو شعره..

مراراً أكّد ممدوح أنه استعاض بقراءة الشعر عن ضياع فرصة أن يكون ممثّلاً .

ممدوح الريفي الوافد إلى المدينة من قريته البعيدة (دير ماما) في الشمال السوري، للدراسة في جامعة دمشق قسم الأدب الإنكليزي، لمع مع عدد من الشعراء، باتوا زملاء وأصدقاء في مطلع الستينات، منهم

الفلسطيني فوّاز عيد، والأردني تيسير السبول، والسوريان: علي كنعان، وفايز خضور، والعراقي كريم كاصد.

ممدوح لمع بسرعة البرق في فضاء الجامعة، وفي أماسي مدينة دمشق، فهو صحفي لاذع الكتابة، وهو شاعر يجيد إلقاء شعره، وهو محدّث بارع حاضر في الجلسات واللقاءات، وإلى ذلك هو ساخر.

لا يمكن التأريخ لبداية الصداقة بيننا، لأن الصداقة كالحب لا تعرف كيف تتسرّب إلى روحك، ولكنني متأكّد أن صداقة بيننا نمت منذ لقاءاتنا الأولى في الجامعة والأماسي، ومن ثمّ بالزيارات إلى غرفة كان يقيم فيها قرب الجسر الأبيض.

ممدوح عدوان على مدى السنوات التي عرفته فيها لم يكن محسوباً على (شِلّة) يستقوي بها، ولا على حزب يتلطّى به، يستعين به لبلوغ الشهرة أو المنصب والجاه.

ممدوح عدوان بدأ كبيراً بنفسه. إنه مكتف بموهبته، مشغول بتطوير وصقل هذه الموهبة، بين جنبيه نفس تتأبّى على التزلّف، مصونة بغايات سامية رفيعة، وبكبرياء الشاعر الفارس.

ممدوح عدوان عروبي بدون تنظير. فلسطيني منحاز للقضية والشعب حتى إن كثيرين حسبوه فلسطينياً، لا لتشابه اسم عائلته مع عائلة فلسطينية، ولكن لحضور فلسطين في شعره ونثره، في كتاباته الصحفية، وفي الحوارات التي تجرى معه.

هنا درس كبير ينبغي أن يتعلمّه كثيرون. درس الانتماء للقضية الأساس في حياة الأمّة، فممدوح لم يكن شاعراً سورياً إقليميّاً، ولكنه المبدع العربي الذي تؤرّقه قضايا أمتّه، المعني بكرامة الإنسان العربي، والارتقاء به لاستعادة إنسانيته.

ممدوح عدوان دائماً يقف في مقدمة المثقفين الرافضين للظلم والعسف واستبداد السلطات في الوطن العربي، منافحاً عن كل مظلوم، متحدياً لكل طغيان داخلي أو خارجي.

في كل حياة ممدوح، في كل ما كتب، كانت عينه على أمته، على وطنه الكبير، على فلسطين وعذابها، على القدس كما على القنيطرة والجولان المُحتل، على حريّة الإنسان العربي.

لذا فهو دائماً كبير الحضور والفعل، عالي الصوت والقامة.

هذا هو المثقف في الميدان. هذا هو المثقف العضوي. هذا هو صاحب الكلمة الموقف الذي يوظّف موهبته لخدمة الحق والحقيقة، بكل صدق وبدون غمغمة أو لعثمة.

ممدوح عدوان لو رأيته في الشارع، أو التقيته في جلسة دون أن تكون على معرفة مسبقة به، فأنت ستحكم عليه بأنه إنسان ذكي، جذّاب في حديثه، خفيف دم، جاد، مثقف دون استعراض، دمث، مزيج من ابن الريف والمدينة، إنسان لا تنساه، ولذا ستشعر فورا بأنه صديق.

أقصد أن ممدوح عدوان لا يتظاهر أبداً، إنه هو، فلا سرحات مفتعلة، ولا بوزات مع كل شهرته وثقافته العميقة الفسيحة.

إنه ممدوح عدوان المتواضع، ولكن انتبهوا واحذروا، فهو غير متسامح في كرامته كإنسان، وكمبدع .

ذات يوم كان عدد من الشعراء والكتّاب العرب في زيارة لقطر عربي، وسهر معهم قريب لحاكم ذلك البلد العربي، وأخذه السُكر فانتشى وسمح لنفسه بما يُستشم منه السخرية من الشعراء والكتّاب العرب الحاضرين، فكان أن تصدّى له ممدوح، ونهره، نعم نهره، وأمره أن ينهض ويغتسل ويستيقظ، ثمّ ليعود إلى بيته ويتباهى أمام زوجته بأنه رجل محترم بدليل أنه كان يجلس مع شعراء وكتّاب الأمّة.

لقد نهض ذلك الشخص، وراح ووضع نفسه تحت دوش في إحدى غرف الفندق، ثمّ عاد ووقف معتذراً على ما بدر منه، واستأذن أن يُسمح له بالجلوس.

هذا هو ممدوح عدوان، وهكذا يكون الشاعر، والكاتب، والمبدع ...

ممدوح عدوان إنسان مرح، ضحوك، محب للفرح، ساخر، مرتجل سريع البديهة، وبيني وبينه وقائع وجولات كانت مبعث فرح لي ولكثيرين ممّن كنّا نجالسهم، وإلى أن نتقابل في عالم آخر سأظّل أفتقده كثيراً فهو المحرّض على قدح الذهن، ومجاراته في السخرية المحببة، والكوميديا الرفيعة المستوى.

ربّما تكون هذه مناسبة للشهادة لممدوح بأنه كان لا يسخر من أحد، وكانت خلافاته وصراعاته تنطلق من رأي وموقف ووجهة نظر، وهذه أخلاق الفارس.

ممدوح الحاضر كمبدع جّاد، حاضر على امتداد الوطن الكبير بحلاوة روحه.

ذات أمسية كنت مدعوّاً على العشاء في بيت الصديق الطاهر وطّار في العاصمة الجزائر، فأحضر سي الطاهر قصعة كبيرة – تشبه الباطية عندنا – عليها كتل لحم، ولكنني لم أعرف صنف الطعام.

وقف سي الطاهر وسألني:

– يا سي رشاد، هذا طعام لا تعرفونه في المشرق..

سألته:

– ما هو يا سي الطاهر؟

أجابني:

– إنه ثريد ...

عندئذ حبكت معي فباغته:

– كيف لا نعرف الثريد؟ ألم تسمع بثريد الأطرش، يا سي الطاهر؟!

فكان أن دفع البيريه عن رأسه النظيف من الشعر، واندفع إلى الهاتف يطلب رقماً، فإذا به يروي الطرفة لممدوح في دمشق، وتمتد المكالمة، ونسهر كأننا معاً في مكان واحد..

ممدوح المبدع العربي، متواجد في كل الأقطار، صداقاته ممتدة بين المحيط والخليج، فهو عداك عن إبداعه الغني، كريم مضياف في بيته، حباه الله بزوجة لم تمش خلفه، ولكنها مضت إلى جانبه تدعمه وتسنده.

بيته ملقى الأصدقاء، بيته العربي المضياف، هكذا هو دائما.

ولذا فإن بيته العربي الكبير، بكل مبدعيه احتفل به، ولا أقول نعاه.

قبل أيّام كنّا في دمشق، وعند باب دار الأوبرا، حيث كانت الاحتفالية بممدوح عدوان الذي رحل عنا جسدا، التقيت بالسيدة إلهام (أم زياد)، فقالت لي:

- أُنظر يا رشاد.. ها نحن نزّف ممدوح، نقيم له عرساً..

كان ذاك الذي رأيته في دمشق عرساً حقيقياً للمثقف الملتزم، للمبدع الشريف الصادق الجريء، لممدوح عدوان...

وإذ سمعت الشاعر الكبير محمد الماغوط وهو ينادي ممدوح، بصوته الأجّش المتفجّع، في فيديو سُجّل معه، أصابتني رجفة هلع وتساءلت بلا وعي:

- ماذا جرى لممدوح، هل جرى له أمر سيء، لماذا يناديه الماغوط بهذه اللهفة المتفجعّة؟.

ممدوح، ممدوح، أخي وصديقي ممدوح، هل حدث لك سوء؟!

أنا أصيح فتأتي إلي القصائد، المسرحيات، الكتابات الحّارة، روايتك الملحميّة (أعدائي) التي قال فيها أحد الأصدقاء: لو لم يكتب ممدوح غيرها لكفاه هذا المجد.. تأتي مواقفك، تأتي ترجماتك المعنيّة بتثقيف الإنسان العربي وتسليحه بالوعي ضد جلاّديه.

ممدوح عدوان أيتها السيدات، أيها السادة: استثمر عمره، قطّره، فأعطى ما يثير الدهشة قيمة وكثرة، فهو بحّق عدّة مبدعين في واحد، إنه مؤسسة اسمها ممدوح عدوان.

ممدوح، ممدوح، أهي استراحة طويلة كنت تحتاجها بعد كل هذه المنازلة؟

أيها المثقفون العرب تعلّموا الكثير من ممدوح عدوان الذي عاش في حياة قصيرة حيوات كثيرة.

وأنتم إخوتي في رابطة الكتّاب الأردنيين ونقابة الفنانين الأردنيين، أحييكم على هذا الاحتفاء بممدوح عدوان المبدع العربي العابر للحدود رغم الرقابات، ومراكز الجوازات، وقوائم المنع.

المجد للمبدع الكبير ممدوح عدوان الذي أعلى من قيمة المثقف العربي، وأعاد للشاعر جوهر فروسيته، وللمثقف العربي هيبته.

ممدوح عدوان سيعيش كثيراً أيتها السيدات، أيها السادة..

---

* نص كلمة الكاتب التي ألقاها في حفل تأبين الراحل ممدوح عدوان، والذي أقامته رابطة الكتّاب الأردنيين، ونقابة الفنانين الأردنيين، في مركز الحسين الثقافي يوم الثلاثاء 1 آذار...

ساعي البريد لا يحمل الرسائل لجبرا

هناك في شارع الأميرات، في حيّ المنصور، بنى بيته البغدادي الجميل، بيته المكتّظ باللوحات الفلسطينيّة التي رسمها في فترات مبكرّة من حياته، تتصدرها صورته في عنفوان الشباب، ولوحات كثيرة مهداة له من فنّانين عراقيين لامعين ربطته بهم صداقة وطيدة، هو الذي جعل من العراق وطنا يتداخل بفلسطين لحما ودما وثقافة.

العراق الوطن الأوّل للحبيبة والزوجة لميعة العسكري رفيقة الحياة الهانئة ببغداد، لميعة التي تحدّت المعوقات وتزوجت من الفلسطيني المسيحي جبرا.

القدس تحضر في البيت الواقع في شارع طغى عليه اسم شارع الأميرات، وجبرا عنوان في العراق، فلا حاجة – وهذا ما ظننته يمزح حين أخبرني به – لكتابة العنوان بدقّة على غلاف الرسائل التي تُرسل له من بيروت، أو دمشق، أو تونس، أو أي مكان في العالم.

يكفي أن تكتب: العراق، جبرا إبراهيم جبرا.. لتصل الرسالة.

أمّا إن أردت من السائق أن يوصلك إلى العنوان، فما عليك إلاّ أن تطلب منه أن يأخذك إلى حي المنصور، فإن ضلّ السائق، فأي بائع، أو

مواطن في الحي، سيدّله على بيت الأستاذ جبرا الذي تقع بجواره السفارة المصريّة.

رحل جبرا عام **1994**، قبل أن يحرق الاحتلال الأمريكي قلب بغداد، ويحيل حي المنصور الهادئ الجميل إلى موت يومي، بالصواريخ التدميرية، والتفجيرات المدبرة، والاغتيالات.

غادر إبنا جبرا بغداد بعد رحيل الوالد والوالدة، واستفحال جرائم الاحتلال (الديمقراطي)، وأوكلت العناية بالبيت البغدادي بنكهته التلحميّة – نسبة لبيت لحم – المقدسيّة، لشقيقة زوجة ياسر، أحد الابنين المهاجرين من بلدهما العراق نجاة بأسرتيهما.

السيدة لميعة وجبرا أقفر منهما البيت، والبوّابة المنخفضة الصغيرة التي لا تسّد في وجه الضيوف، والتي تبدو كراحتين مُرحبتين اختفت، وقد كانت مفتوحة دائما.. فمن يتهدد أمن وحياة وطمأنينة جبرا الذي أعطى العراق عمره، وعصارة إبداعه، تماما كما أعطى لفلسطين، وأينع هذا الحب العارم أسرةً، كتابةً، فنّا؟!

آخر زيارة لذلك البيت، وياما زرناه، كانت السيدة لميعة تعاني من كسر ساقها، ولكنها كانت مرحة، مضيافة لطيفة الحضور، يومها سألتها محرّضا بوّد المحّب:

– ألا تغارين من نساء (عمنا) جبرا، في رواياته؟

أجابتني بلهجتها العراقيّة المحببة:

– عيني.. هذول نساء من ورق.. أنا لا أغار من نساء على الورق.

ضحكنا، وغمزت (العم) جبرا؟

– اطمئن يا عّم لهذا التسامح، وهذه المغفرة، تنعم عليك بها أم سدير.

تناولنا الغذاء، وكنّا حشدا من الزوّار، رغم ظروف الحصار على العراق، بينما (أم سدير) تكلؤنا بالرعاية والعناية.

في بيت جبرا تلتقي بفنانين تشكيليين، بممثلات وممثلين، بروائيين وموسيقيين، بنقاد أدب بارزين كانوا من تلاميذ جبرا قبل سنين، ومترجمين يرعاهم ويشجعهم ويساعدهم على اختيار ما يترجمون.

عندما نلتقيه في بيته، نكون غالبا معا وحدنا، فنحن أبناء (الطائفة) – كنت أنا صاحب هذا المصطلح الساخر – الفلسطينيّة، نخوض في همومنا، تتداعى الذكريات، ونستحضر سيرة أصدقاء نحبهم ونفتقدهم، وتكون السيدة لميعة قد استأذنت بلباقة بعد الترحيب:

– أترك الطائفة الفلسطينيّة لشؤونها.. تحدثوا براحتكم عيني.

لم تكن السيدة لميعة زوجة عاديّة، فهي درست الأدب في أمريكا، وهي ابنة عائلة (العسكري) المشهورة – أسرة كرديّة عريقة – متابعة ذكية واسعة الإطلاّع والثقافة، ولكنها لم تكن تثقل على جبرا وضيوفه.

خبر دمار بيت جبرا بعملية انتحارية يقال أنها استهدفت السفارة المصريّة، احتراق البيت، ووفاة سيدة هي شقيقة زوجة ابنه ياسر، وخسارة المكتبة، اللوحات، الأسطوانات النادرة في مكتبته الموسيقيّة.. صدم أصدقاء جبرا ومحبيه في العراق، وفلسطين، وكل بلاد العرب.

جبرا الروائي المجدد، المترجم المبدع الذي نقل أعمال شكسبير لنقرأها وكأنها كتبت أصلاً بالعربيّة، الذي عرّف القرّاء العرب برائعة وليم فولكنر (الصخب والعنف) والذي نبّه شعراء العرب إلى (الغصن الذهبي) لفريزر، شاعر قصيدة النثر، كاتب السيناريوهات، الناقد، المبشر بالحداثة في الفّن والأدب.. دمّر بيته وحرق تراثه في زمن الاحتلال الأمريكي، الزمن الخراب.

رحل جبرا قبل أن تستفحل عمليات مطاردة وقتل الفلسطينيين في زمن الاحتلال، وازدهار أحقاد الطائفيين المرضى، ولكن بيته لم ينج.. فاستهدف، ودمّر بالكامل!.

هنا سيخطر بالبال أن أحدا لا يعنى بالمبدعين الفلسطينيين، وإلاّ لكان أُنقذ مكتبة ولوحات وأسطوانات ورسائل ومقتنيات جبرا التي لا تقدّر بثمن.

شارع الأميرات الذي جعله جبرا عنوانا لواحد من أجمل أعماله الأدبيّة، ليس آمنا، وليس عابقا برائحة الياسمين البغدادي. نخيله الوارف متهدّل أصفر ذابل، أو محروق، يبدو شواهد على زمن الخراب والموت

المجّاني في بلاد وعدها الغزاة الأمريكيّون وأتباعهم بالديمقراطيّة، فإذا بالديمقراطيّة تجتث طمأنينة العراقيين، وأساسات بيوتهم، ومجتمعهم الذي يتّم تدميره المنهجي يوما إثر يوم.

لن أكتب بعد اليوم لجبرا، فالرسالة لن تصل. العنوان احترق، والمرسل إليه مدفون في مقبرة نائية منسيّة، وساعي البريد لم يعد يركض بالرسائل الكثيرة والمعنونة: العراق، جبرا إبراهيم جبرا.. حيث في فرع من شارع الأميرات يستقبل جبرا الساعي هاّشا باشا، وهو يتناول منه أكداس رسائل واردة من كل بلاد العرب مشرقا ومغربا.

لأخفف عن نفسي أخذت في التمسيد على رّف الكتب التي تحمل اسم جبرا تأليفا وترجمةً.. أمّا نسخة صورته التي رسمها مبكرا، فإنها تعيدني إلى تلك الأيّام البغداديّة، وأحاديث الذكريات عن بيت لحم، والقدس، وأحاديث الكتابة روايةً وشعرا وقصةً، ونقدا، وترجمةً. إنه يبتسم كأنه يخرج من واحدة من مسرحيات شكسبير، ساخرا من كل هذا العبث والجنون.

احترق بيت جبرا، والرسائل لن تصل.

البوسطجي لم يعد يركض متلهفا على لقاء الأستاذ الذي يغدق عليه من كرمه ونبله وبشاشته، فلا بريد في بغداد، ولا أخبار يوميّة سوى عن التفجيرات والقتل، والاختطاف، والاغتصاب، وبيع الكتب في شارع المتنبي من أجل لقمة العيش، فهذا زمن للجهل وليس للثقافة، لضيق

الأفق، لانعدام الرحمة، لوأد القيم، للمتاجرين المدلسين على الفقراء من شعب قسّم إلى طوائف وحقنت غرائزه بالحقد والكراهية ونزعة الثأر.

يكتب جبرا عن علاقته بشارع الأميرات: في ربع القرن الأخير – يقصد القرن العشرين – بعد أن نشأت بيني وبين عدد من الأمكنة علاقة الحب التي ذكرتها، قامت علاقة حب عميق بيني وبين شارع الأميرات في حي المنصور، ما زلت أتمتع بنبضها وإيحاءاتها.

لم يجعل جبرا لبيته سورا: آثرت أن أجعل رصيف الدار مزروعة بالثيل والأوراد وأشجار الصنوبر، وإذا بالجيران يقتلعون الأسمنت الذي كانوا قد بلّطوا أرصفتهم به، ويزرعونها بالثيل والأوراد، وكانت تلك بداية النهج الذي اتبعه بعد ذلك كل من بنى في حي المنصور في جعل الرصيف متصلاً بالحديقة بأعشابه وأزهاره الموسميّة وجهنمياته.

جبرا الفلسطيني خسر بيته في بيت لحم، بئره الأولى، وها هو يخسر بيته البغدادي.. وقد رحل وترك لأمته مكتبةً.. تأليفا وترجمةً، وروحا سرت في الثقافة العربيّة المعاصرة فألهمت عشرات الفنانين، والشعراء، والروائيين، والمثقفين الذين نهلوا معرفةً من ينبوعه الثر الذي لا ينضب.

أجلس.. وأكتب، وأنقّل النظر بين بيت لحم والقدس وبغداد، فألمس رفيف روح جبرا، وأسمع همسه العميق: رسائلكم ستصلني، فبريد الروح بيننا لا يمكن أن يعطّله الاحتلال الصهيوني لفلسطين، والأمريكي للعراق.

يأتيني صوت المعلّم جبرا: أكتبوا لي، فشارع الأميرات لا يموت، وبغداد ستنهض من الدمار والخراب في تموّز آت...

هل مات جبرا حقّا؟ وهل دُمّر بيته، وهل خُرّب شارع الأميرات؟!

إبراهيم طوقان .. مائة عام على ولادته

نحتفي اليوم بالعيد المئوي لولادة شاعر فلسطين الكبير إبراهيم طوقان، وأضع حجر الأساس للرحلة الشعرية الفلسطينيّة المعاصرة، المترافقة مع مسيرة شعب فلسطين، وقضية فلسطين.

عام **1905** ولد شاعرنا الكبير، دون تحديد اليوم والشهر. ولد إبراهيم طوقان وفلسطين يشملها ليل الزمن العثماني الراكد، الزمن الذي أخرج العرب كأمّة من مسار تاريخها، وأفقدها دورها، وشخصيتها، وهدّد هويتها القومية، طيلة أربعة قرون من التخلّف.

ولد إبراهيم والمشروع الصهيوني قد دشّن أولى خطواته، ورسم برامجه للاستيلاء على فلسطين، بالترافق مع مخططات الغرب الاستعماري التي أسفرت من قبل عن مطامعها على لسان نابليون بونابرت الغازي لمصر وفلسطين، ودعوته الصريحة لليهود للمجيء إلى فلسطين وتأسيس دولة لهم، دولة أرادها نابليون عازلة بين مشرق الوطن العربي ومغربه.

في زمن تحوّلي عاصف ولد إبراهيم طوقان، ومع تفّتح وعيه على ما يدبّر لوطنه فلسطين، كانت الكلمة خياره وسلاحه في المواجهة.

ولد إبراهيم طوقان في مدينة نابلس، التي من أسمائها: شكيم (الكتف).

نابلس عاصمة جبل النار أخذت هذه الصفة من النيران التي كان يشعلها النابلسيون على قمتي جبلي (جرزيم) و(عيبال) عندما يدهم المنطقة عدو، والنار تلك دعوة للفلاحين للعودة من حقولهم، ومواجهة عدوهم بالنار.

بتلك الروح، أبدع الفلسطينيون على مدى أغنيات وأناشيد تعبّر عن مضاء عزيمتهم:

هبّت النار في روس الجبالي

ومن بعد في عصر البنادق:

هبّت النار والبارود غنّى

مسقط رأس إبراهيم نابلس ضربتها الزلازل مراراً، فما هجرها أهلها، بل صعدوا أعلى على سفحي (عيبال) و(جرزيم)، فكأنما كل مصيبة مهما عتت لا تهز تشبّثهم بالحياة، والمكان الأثير على نفوسهم، بل تدفعهم للعلّو، وهذا عائد إلى صلابة في الروح، وعناد في التعامل مع عوامل الطبيعة، ومع كل ما هو معاد للحياة.

إبراهيم طوقان بدأ شعرياً مع بدء القضية، وامتلك الموهبة، والبصيرة، وحدّة الوعي، فكان صوته النذير المنبه، والمحذّر، والرائي.

إبراهيم جسّد مزايا المبدع والمثقف العضوي قبل أن يشيع هذا المفهوم بعقود، هكذا بتحليله للواقع، وبالممارسة، والتعامل بنفاذ بصيرة مع الأحداث، والالتحام بحركة الجماهير.

أمامك أيها العربي يوم تشيب لهوله سود النواصي

شاعر شديد الواقعية، يتأمل ما يجري، يعرف العدو، ويرى مخاطره ماثلة، العدو الإنكليزي والصهيوني، ولا يغيب عن ناظريه أن زعماء البلاد خانعون، يتسابقون على الوجاهة، يضيّعون الأرض، ويتقاعسون عن التضحية.

يخاطب الزعامات الخانعة التي تكتفي بالمشاركة في تظاهرات مصرّح بها:

وقد شبعتم ظهوراً في تظاهرة

مشروعة وسكرتم بالهتافات

ويخاطبهم مستهزئاً:

بل حكمة الله كانت في سلامتكم

لأنكم غير أهل للشهادات

أضحت فلسطين من غيظ تصيح بكم

خلّوا الطريق فلستم من رجالاتي

إبراهيم طوقان حّاد في نقده، جارح كلامه، صادق في مواقفه، حتى لكأنه اليوم معنا، يرى، ويحاكم، ويدين من تناسل من تلك الزعامات من دعاة التظاهر المشروع، واستجداء السلام الفادح الخسارة، بل ويدين هكذا فكرا انهزاميا.

إبراهيم طوقان ساخر، وسخريته مُرّة، فهو وقد رأى الزعامات توقّع على تعهّد لسلطات الانتداب البريطاني – تلطيف لصفة الاحتلال – بعدم التظاهر من جديد، اللهم باستثناء الشيخ (عبد القادر المظفّر)، الذي قال فيه مادحا:

إنّ المظفّر من حديد جسمه

فيما أرى وجسومهم من سكّر

والذين جسومهم من سكر سريع الذوبان، هم أنفسهم الذين يخاطبهم مستهزئا:

في يدينا بقيّة من بلاد

فاستريحوا كيلا تطير البقيّة

هذا الشاعر أحد مجددي الشعر العربي المعاصر، وكم بودّي لو ينبري نقادنا لدراسة مآثره في تجديد بنية القصيدة، ومعمارها الفنّي.

هذا الشاعر أدار ظهره للبديع، والجناس، والطباق، والمحسنات اللفظية، والسّر في ذلك يعود إلى عمق ثقافته، ووعيه السياسي، وإدراكه

للتحولات والتغيّرات الاجتماعية والحياتية، واطلاعه على ثقافات مختلفة بلغاتها – كان يتقن الإنكليزية والتركيّة – ويبدع بلغة عربيّة تنتمي لروح عصر يلفظ فيه العرب زمن الانحطاط ويتطلعون إلى زمن نهضوي يعيدهم إلى الحياة والفعل.

تعلّق إبراهيم بالمتنبي شاعر العرب الخالد، وبشوقي الذي رأى فيه شاعراً عربيّاً مجدداً.

إبراهيم طوقان إنسان رقيق الجسم، شفّاف الروح، نبيل النفس، حاد النقد لما يراه من خطايا وآثام تقترف بحّق فلسطين.

هو شاعر الوطنية الفلسطينية المبكّرة، واللغة العربية الرشيقة المعاصرة، اللغة التي تخاطب العقل، والروح، اللغة التي يفهمها المثقف، والبسيط من الناس، وهذا ما تجلّى في مقالاته التي بثّتها إذاعة فلسطين، ونشرتها صحافتها، وفيها يتجلّى عمق بصيرته، وقدراته النقدية، وبراعته في مخاطبة قرّائه ومستمعيه.

من يعد إلى مقالاته التي كان يقرأها عبر إذاعة فلسطين، يلمس رحابة رؤيته، وعمق تحليله، وسلاسة مخاطبته، وقدرته على الوصول إلى مستويات مختلفة من الناس.

لقد رفض بعناد نابلسي، وهو يرأس القسم العربي في إذاعة فلسطين، أن تبّث البرامج باللهجة العّامية الفلسطينيّة – ترون لعبة ترويج اللهجات، إنها خطط قديمة – وبقي على رأيه حتى سرّحه القائمون على

تلك الإذاعة من عمله، بعد أن عجزت سلطات الانتداب عن تليين مواقفه، وانصياعاً لتصاعد حملة الصحافة الصهيونية على كتاباته.

إبراهيم طوقان شاعر ساخر، فكه، مرح، عاشق، محّب للمرأة، كروح، كحضور إنساني يكتمل به الرجل، ولا حياة بدونه:

أما عجب والأرض ملأى بمثلها

هيامي بها دون الحسان على رغمي

لا يبهرنا إبراهيم بوصف محبوبته، كما لو أنه نخّاس يسعى لرفع السعر، إنه يتحدّث عن حبّه ببساطة، بتواضع، بحيرة.

حقّاً ما الذي يجعلنا نُحبّ هذه الفتاة دون غيرها، وغيرها ربّما أجمل؟!

ينقلك إبراهيم إلى الأسئلة، فلا تملك إلاّ أن تشاركه حيرته المحببة، وتردد مع أمهاتنا: الحبُّ أعمى. وقد نقول كمثقفين: الحب يسري بين النفوس بكهرباء لا نعرفها.

اسمعوا هذا الشعر البسيط، الأنيق، القريب إلى النفس، السهل الممتنع:

إذا كان في دنيا الهوى مثلما أرى

فأي عجيب في هوى العمي والصم

إبراهيم طوقان كتب أناشيد للوطن بقيت، وستبقى على مدى الزمن:

موطني الجلال والجمال   والسناء والبهاء في رباك

والحيـــاة والنجـــــاة   والهناء والرجاء في هواك

هل أراك

سالماً منعماً   وغانماً مكرّماً

هل أراك في علاك

تبلغ السماك

موطني

موطني الشباب لن يكّل   همّه أن تستقّل أو يبيد

نستقـــي مـــن الـــردى   ولن نكون للعدى كالعبيد

لا نريد

ذلّنا المؤبدا   وعيشنا المنكّدا

لا نـــريد   بــــــل نعيــــــد

مجدنا التليد

موطني

موطني الحسام واليراع   لا الكلام والتزاع رمزنا

مجدنـــا وعهدنا وواجب إلى الوفا يهزّنا

عزّنا

غاية تشرّف وراية ترفرف

يا هنـــــاك في عـــــلاك

قاهراً عداك

موطني

هذا النشيد تردد في أفواه عرب كثيرين، ومن أسف أن بعض العملاء في العراق المحتّل أمريكيّاً يرددونه هذه الأيام، وهم يذبحون العرب ويقسّمون العراق طائفيّاً، مدّعين حّب العراق، والعراق العربي براء منهم.

ربّما يتساءل بعضنا: أيمكن أن تكون تلك النفس الرقيقة التي تهيم بالحسان، وتشتعل وجداً بفتاة أندلسية مستعيدة زمناً عربيّاً أفل، هي النفس المتفجّرة غضباً وحقداً على أعداء الوطن؟!

صفات إبراهيم، مكوناته النفسية، بيئته الوطنيّة، الأساتذة الذين علّموه ونهل من أفواههم المعرفة وحّب الوطن، أهلّته ليكون شاعر فلسطين، وصوت ثورتها، وشعبها.

لا تسل عن سلامته

روحه فوق راحته

يرقب الساعة التي

بعدها هول ساعته

شاغل فكر من يراه

بإطراق هامته

بين جنبيه خافق

يتلظى بغايته

* * *

صامت لو تكلّما

لفظ النار والدما

فاهدأي يا عواصف

خجلاً من بسالته

هذا هو الفدائي العربي الفلسطيني كما عرَّفه إبراهيم قبل ثمانية عقود، ومن عينيه، وروحه، قبس هذه النار، ومزجها مع نار أبدية تتأجج في قمتي جرزيم وعيبال.

لم يصف إبراهيم الفدائي وصفاً خارجيّاً، بل دخل في عمق نفسه، استبطنه، صار هو. الفدائي هنا صامت، غاضب، حامل هم، رجل صاحب مبدأ، يحرّكه وعي وانتماء.

كما أسلفت فإن إبراهيم نوّع في القافية، والأوزان، لتتحرّر قصائده من الإيقاع البليد، والرتابة، وسطحية الوصف الخارجي الصاخب والانفعالي.

إبراهيم رأى في تجهيل المرأة، وعدم تعليمها، سبباً للتخلّف، وإعاقة للتطوّر والتقدم في بلادنا.

لقد هاله مدى تخلف العلاقة بين الرجل والمرأة، وحشرها وراء الحيطان كما لو أنها جارية، وتحويلها إلى وسيلة إمتاع وإنجاب.

نرى تقدميته في رعايته وحنوه على شقيقته فدوى التي حبست في البيت، وأخرجت من المدرسة، بعد أن رشقها فتى عاشق بوردة.

تقول فدوى في كتابها (رحلة جبليّة، رحلة صعبة): في تمّوز عاد أخي إبراهيم من بيروت يحمل شهادة من الجامعة الأمريكيّة ببيروت، واستقر في نابلس ليمارس مهنة التعليم في مدرسة (النجاح الوطنية).

مع وجه إبراهيم أشرق وجه الله على حياتي.

كانت عاطفة حبّي له قد تكوّنت مع تجمّع عدّة انفعالات طفولية سعيدة كان هو مسببها.

أول هدية تلقيتها في صغري كانت منه.

أول سفر من أسفار حياتي كان برفقته.

كان هو الوحيد الذي ملأ الفراغ النفسي الذي عانيته بعد فقدان عمّي. والطفلة التي كانت تبحث عن أب آخر يحتضنها بصورة أفضل، وأجمل، وجدت الأب الضائع مع الهدية الأولى والقبلة الأولى التي رافقتها.

إبراهيم عُني بتثقيف فدوى، برسائله وهو في بيروت، بتوجيهها لغوياً، بحضّها على كتابة الشعر، بمناقشتها في كّل ما تكتب.

إبراهيم أطلق فدوى حمامة من قفص الحبس، والعزلة، والقمع النفسي والاجتماعي، وبما فعله معها كان يكرّم المرأة، ويخوض معركة حريّتها، وبالعلم يصون كرامتها.

إبراهيم أهدانا شاعرة عربيّة كبيرة هي فدوى طوقان. انظروا وتأملوا المعجزة: بنت لم تكمل الصف السادس الابتدائي، من بيئة محافظة، تقفل عليها البوّابة، ويزّج بها وراء الجدران، ترى الدنيا من نافذة، ولكنها برعاية شقيقها الشاعر الإنسان تصبح شاعرة ملء السمع والبصر في بلاد العرب، ويصل صوتها إلى أقاصي الدنيا، وتكرّم بأرفع الجوائز، وتمنح الدكتوراة التقديرية على عطائها من جامعة النجاح في نابلس.

إذا كان تاريخ ولادة إبراهيم غير محدد، فإن يوم رحيله هو 3 أيّار 1941، وقد خطفته في ريعان الشباب والعطاء يد المرض الذي لازمه في معدته من بواكير شبابه.

ما الذي جعل شاعراً يرحل ولم يبلغ السادسة والثلاثين، يحيا شعراً، ونثرا، وسيرة حياة وعطاء، حتى يومنا هذا، وأحسب أنه سيحيا إلى زمن بعيد؟

إن حياة إبراهيم طوقان تتجدد مع كل كلمة في نشيد الفدائي، وموطني، والثلاثاء الحمراء، وفي قصيدته الإنسانية (ملائكة الرحمة)، وقصائد الحّب والنفس، وشجن الشباب وهواه.

إن حياته تتجدد ونحن نقرأ مقالاته عن الأدب العربي، عن الشعر والنثر العربي، عن رؤيته للشعر، وعن رسالة الشاعر.

حياة قصيرة، حياة شّابة، تملأ نفوسنا بالفخر، أمثولة المبدع الشاعر الذي أعطى وطنه فصانه وطنه، وأحبه شعبه، وباهى به.

مبدعون فلسطينيّون شباب رحلوا وهم في ريعان الشباب، وذروة العطاء، ها هم أحياء يرزقون: نوح إبراهيم، مطلق عبد الخالق، عبد الرحيم محمود، وائل زعيتر، كمال ناصر، سميرة عزّام، غسّان كنفاني، ماجد أبو شرار، ناجي العلي، حنّا مقبل...

هؤلاء رسموا لنا معالم الطريق، إذ لا يكفي أن تقول بعض الكلام عن فلسطين وتريح ضميرك، رافعاً العتب عن نفسك.

أنت شاعر، فنّان، صحفي، روائي، قاص، موسيقي، مسرحي، فنان تشكيلي، هذا يعني أنك حامل رسالة.

أنت مبدع إذا لابدّ أن تنخرط في ميدان المعركة، تحرّض، تنذر، تنتقد – ودور المبدع نقدي، فاضح للانحراف، والفساد، والخراب – تقول كلمتك بدون غمغمة، أو إغراق في الرموز، والتعمية، والتلاعب بالألفاظ...

نحتفل اليوم، في ختام العام **2005**، بشاعر فلسطين الكبير، وفتاها، إبراهيم طوقان، نستلهم سيرة حياته القصيرة المضيئة، وروحه الشعري، وصلابة مواقفه، ومعه نحتفي بذكرى صديقه الشهيد عبد الرحيم محمود، وبذكرى صديقه أستاذنا عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وبكّل من حمل الراية من بعدهم.

نترحّم على شاعر حيفا حسن البحيري، وعلى معين بسيسو، وراشد حسين، وعلي فودة، وفوّاز عيد، وتوفيق زياد، وكل شعراء فلسطين الذين رحلوا قابضين على جمرها.

إن فلسطين حيّة ستبقى، عربيّة ستبقى، وإنها وفيّة لمن يخلص لها، لمن لا يساوم عليها، ولمن يعطيها فنّاً صادقاً أصيلاً.

إبراهيم طوقان: عمراً مديداً لحضورك، للكلمة الشجاعة الطاهرة الصادقة.

ها نحن ننشد معك للفدائي المقاوم في فلسطين، ولكل فدائي سيقاوم على كل أرض عربيّة.

ها نحن ننشد بملء الفم والقلب والروح:

موطني

الجلال والجمال

ها نحن الأوفياء لأمتنا، نحتفي بك في مخيم اليرموك، على مقربة من أضرحة الفدائيين الشهداء.

ها نحن نسمع أصواتهم تنشد (موطني) احتفاءً بك.

ها نحن نستضيء بنور عيونهم الذي يشّع علينا من قبورهم، هم الذين جاءوا من أماكن شتّى ليستشهدوا من أجل فجر حريّة فلسطين، فدفنوا هنا، في مقبرتي الشهداء: أخوةً متعانقين في حبّها، على وعد أن تعاد عظامهم لتعانق ثرى فلسطين.

لروحك السلام، وعمراً مديدا يا شاعر نار فلسطين المقدسّة.

اليوم نحتفي بك في مخيم اليرموك قرب دمشق العربيّة الخالدة، وغداً، وسيأتي هذا الغد المأمول، سنحتفي بعيدك وعيد شعبنا في نابلس، وحيفا،

والقدس، والناصرة، والخليل، وفي غزّة، وخان يونس، وفي كل مدن وقرى فلسطين، وسننشد معك: موطني.. سننشد (موطني) وشعبنا يرفع راية الانتصار لترفرف عالياً في سماء فلسطيننا الواحدة الكاملة العروبة والحريّة.

بمناسبة مئوية الشاعر الكبير، وكنّا أقمنا احتفالية في المركز الثقافي بمخيم اليرموك _ القريب من دمشق. شارك فيها الشاعر الكبير يوسف الخطيب، والموسيقار الكبير حسين نازك. وحضرها حشد من المثقفين.

يوسف الخطيب.. شاعر الغضب والكبرياء

رحل الشاعر العربي الفلسطيني الكبير يوسف الخطيب في دمشق (16 حزيران 2012) وصف الشاعر نفسه بـــ (مجنون فلسطين)، لا عن تعصب، ولكن لأنه رأى أن فلسطين جديرة بالعشق حتى الجنون، وآمن بالعروبة، ونادى بوحدة الأمة لإنجاز التحرير.

أشهر غضبه في وجه القريب والبعيد، العربي وغير العربي، ففلسطين عنده امتحان لكل إنسان على هذه الأرض، فأمام محنتها يمتحن الضمير الإنساني، نقيا صادقا شريفا، أو خسيسا كاذبا مرتشيا حائدا عن الحق.

يمكن وصف يوسف الخطيب بأنه شاعر الغضب الفلسطيني، فبلاد العرب تضيق عليه، وبه، وهو لا يريدها أن تفتح ذراعيها مُرحبة به كأنه ضيف، فمبعث غضبه أن بلاد العرب بدون فلسطين ناقصة، وأنها تخذله، وأنه يراها أقل مما يرجوه لها من عروبة قويّة مُحررة.

وأنا الذي وطني ارتحال الشمس

ملء الكون

لكنّي بلا وطن

من ذا يصدقني.. من ذا يصدقني؟!

لما ولد في بلدة (دورا) القريبة من مدينة الخليل، عام **1931** كانت فلسطين تعيش حالة غليان، فالأطماع الصهيونية أسفرت عن أهدافها برعاية الانتداب البريطاني، والهبّات والانتفاضات تلاحقت منذرة بالانفجار الكبير الذي تجلّى في ثورة فلسطين الكبرى **1936_ 1939**.

آنذاك كان شعراء فلسطين يأخذون دورهم التوعوي متقدمين على قيادة الحركة الوطنية، مطلقين قصائدهم المنذرة بالخطر الداهم، حاضين على الثورة لإنقاذ فلسطين مما يستهدفها من مخططات معلنة وخافية، تحوكها بريطانيا والحركة الصهيونية، والتخاذل والغفلة عربيّا.

وهو ينمو في بلدته (دورا)، ويبدأ فك الحروف في كتّابها، بدأ يسمع بإبراهيم طوقان وأبي سلمى، وعبد الرحيم محمود، فاستلهم روحهم، ودرج على دربهم، فكان أحد أبرز شعراء فلسطين الذين دوّت أصواتهم بعد نكبة عام **48**.

منذ قصائده الأولى التي ضمها ديونه الأوّل (العيون الظماء للنور) لمع اسم يوسف الخطيب، وبات مع هارون هاشم رشيد، ومعين بسيسو، اللذين سبقاه بسنوات قليلة في التألّق في قطاع غزّة، وصحافة مصر، ثلاثيا يضيف لحركة الشعر الفلسطيني، مع تواصل حضور الشاعر أبي سلمى الذي أقام في دمشق بعد النكبة، وفدوى طوقان التي شقّت لموهبتها دربا منحها حضورا عربيّا.

انتمى يوسف الخطيب الذي درس الحقوق في جامعة دمشق، وتخرّج منها عام **1955** لحزب البعث مؤملاً أن ينجز الحزب وحدة العرب، ويقود مسيرة تحرير فلسطين.

"عائدون" كانت المجموعة الشعرية الثانية التي أصدرها في العام **1958**، وكان قد نشر الكثير من قصائدها على صفحات مجلة (الآداب) وغيرها من كبريات المجلّات والصحف العربيّة، فأكدت حضوره، ورسَّخته، وبوأته مكانة متميزة عربيا في زمن الشعراء العرب الكبار، والشعراء المحدثين، شعراء التفعيلة المجددين، وتبدّى يوسف الخطيب شاعرا مزيجا من الكلاسيك والحداثة.

بحنجرته العريضة، وقدرته المسرحية على الأداء، كوّن لنفسه جمهورا عربيّا، وعُرف وانتشر أكثر من خلال الإذاعة السورية، والتلفزيون السوري، فهو مذيع لامع يتمتع بشعبية، ثمّ هو يأخذ موقع مدير عام الإذاعة والتلفزيون السوري في العام **65**.

عمل يوسف الخطيب في إذاعة القاهرة إبان الوحدة، ومن بعد في إذاعة هولندة الدولية، وبعد تشرّد عاد ليستقر في دمشق، وليؤسس دار فلسطين للنشر، والتي صدرت عنها المفكرة الفلسطينيّة التي تدون أحداث فلسطين يوما بيوم، والتي صدر عنها (ديوان الوطن المحتل) الذي قدّم شعراء فلسطين الداخل **48**، والذي استقبل استقبالاُ حافلا خاصة وأن صدوره ترافق مع صعود المقاومة بعد هزيمة حزيران **67** .

يمكن وصف يوسف الخطيب بأنه أقرب بمزاجه إلى المتنبي، الذي كان لا يرى على نفسه من مزيد، فحمله لصليب فلسطين يمنحه الحق في معاقبة أي متخاذل، رخو، متمسكن، مجامل على حساب فلسطين.

وهو، وإن غادر صفوف حزب البعث، فقد احتفظ بجوهر الانتماء لفلسطين والعروبة لفلسطين والوحدة العربيّة، لفلسطين المقاومة.. والعروبة (الزاحفة) إلى الجليل والنقب.

ولأن أحلامه خُذلت، وإن لم ينهزم، ويلين، ويتخلّى، فإنه يصرخ غاضبا في وجه الأمّة كلها، من محيطها إلى خليجها:

أكاد أؤمن من شك ومن عجب

هذي الملايين ليست أمة العرب

حالة الانخذال، والتهافت، والهوان، والتفكك، لم تستفزه لهجاء الأنظمة البائسة المهادنة البائعة وحدها، فهو حمّل الجماهير، الملايين، الذنب والمسؤولية، فأدانها، وأنكر عليها عروبتها لأنه رآها غير جديرة بالانتساب للعروبة. فكيف تكون عربية ولا تنفض عنها هذه الدول، وهؤلاء الحكّام، وتوحد صفوفها، وتجمع طاقتها.. وتزحف في يوم التحرير العظيم؟!

تميّز يوسف الخطيب بالأنفة، والشموخ، والكبرياء، فكأنه في كل لحظة يردد قول الشاعر العربي:

صنت نفسي عمّا يدنس نفسي

وترفعت عن جدى كل رجس

أراد لنفسه أن يكون كامل الطهارة حتى يليق، وينسجم، مع فلسطينه، وعروبته، وشعره!

بعد حرب تشرين 1973 وبدء أطروحات (السلام)، وتورّط طرف فلسطيني في الحيدان عن هدف تحرير فلسطين، والترويج لدولة فلسطينية على الأرض التي ينسحب منها الاحتلال الصهيوني، شنّ يوسف الخطيب حربا على تلك القيادة وكانت قصيدته (أوديب ملكا على الضفّة والقطاع)، وهي أهجية رهيبة تشبه أن تكون لعنة (لأوديب) الفلسطيني!

اختار يوسف الخطيب أن يصرخ في شعب فلسطين المنتشر في أربع جهات الدنيا، وكأنه صوت يوحنا المعمدان بأقصى غضبه وغيظه، وحنقه، وحتى جنونه!

لا غرابة أن يصدر يوسف الخطيب ديوانه الصوتي (مجنون فلسطين)، فهو يتميز عن مجنون ليلى ومجنون إلسا، إنه مجنون وطن ضُيّع بالتخاذل، والخيانة، والتآمر.. فكيف يصمت، أو ينسى؟!

تميّز (المجنون) هذا بجموح المخيلة، والصورة، والبناء المسرحي، وبعض مطالع قصائده تصيب المتلقي بالذهول، وتبقى محتفظة بروعتها، ورهبتها:

جواد من هذا الذي يعدو بلا فارسه؟!

هذه صورة مركبة، حسيّة مرئية، ومعنوية داخلية، تبهر العين والبصيرة، وتثير الدهشة، والشعر هو الدهشة، وهو الصورة، فلا شعر بلا صورة، والصورة ليست كلاما منمقا خارجيا، ألوانا بهرجية، إنها تركيب ومزج، تداخل، ديمومة، فالصورة تكسب قيمتها من حيوية حياتها، فهي مع كل قراءة تتخلّق من جديد، وتفتح للبصر والبصيرة آفاقا.

جواد يوسف الخطيب الجامح تأثر بها شعراء كثيرون، وصاحب الجواد الذي لا نعرف عنه شيئا، يدفعنا للتساؤل: من هو؟ لماذا انطلق جواده بدونه، ومن قتله، وما شأننا به؟ يبدو أن ذاك الفارس صاحب هم، سقط عن جواده في الميدان، ولذا نشعر أنه منّا. أترون أين تأخذنا الصورة!

ككثيرين غيري ألححت على شاعرنا أن يصدر أعماله الكاملة، ولكنه ظل يؤخر إصدار أعماله حتى تمّ إقناعه من الأصدقاء في (بيت الشعر الفلسطيني)، وكما علمت فقد صدرت الأعمال الشعرية الكاملة لشاعرنا الكبير قبيل رحيله بأيّام قليلة!

كتب يوسف الخطيب مجموعة قصصية بعنوان (عناصر هدّامة)، ومسرح جريمة كفر قاسم التي اقترفها العدو عام **56** أثناء العدوان الثلاثي على مصر. واتفق مع الفنان السوري نعيم إسماعيل على رسم لوحات للمدن الفلسطينيّة، أقام لها بعد إنجازها معارض في عدة بلدان عربيّة.

يوسف الخطيب أحد أبرز شعراء العرب في زمننا، رحل في زمن الثورات العربيّة، وأحسب انه كان يبتسم مغتبطا وهو يرى الجماهير التي شكك بنسبها، وجلدها بغضب المُحّب المحنق من هوانها، وقد انفجرت في ثورات عارمة بدأت تقتلع الطغاة العرب، وتبشّر بإنسان عربي لن يرضى ببقاء فلسطين محتلة. جواد يوسف الخطيب الجامح يطلق صهيله في فضاء الوطن العربي.. بينما جسد الفارس رحل وحيدا!

* القدس العربي، الأربعاء 22 حزيران 2011

صالح علماني.. متى نكرّم المترجم؟!

ما زلنا نحن العرب نباهي بتكريم الخليفة العبّاسي المأمون للمترجمين في عصره، الذين حضّهم على نقل روائع الفكر اليوناني إلى العربيّة، وكل ما هو مهم من العلوم وما يغني معرفة عرب ذلك الزمان، وكافأهم بمردود مادي يكفل لهم عيشاً كريماً، ناهيك عن التقدير الذي حظوا به في مجالسه.

في زمن التخلّف العربي الممتّد طيلة قرون، ومع تفاقم حالة الانكفاء، والتفتت، ولا سيّما في حضيض الزمن الراهن ، واستفحال بؤس (ثقافة) الدولة العربيّة الإقليميّة، بحدودها النابذة والمستربية المعادية للثقافة ممثلّة بالكتاب، وكل ما هو مكتوب، لا غرابة أن المترجم أسوةً بالكاتب (المبدع) لا يحصل على مردود يكفي لعيشه من (جهده)، إذ لا حاجة للكاتب ولا للمترجم في بلاد الاستهلاك والتبعيّة، وتعمّد محو الهويّة القوميّة بعمقها الثقافي.

لكن (المترجم) الأدبي العربي، رغم كّل الجحود، بهمّة تستحّق الثناء، يجهد نفسه في نقل بعض شوامخ الأدب والفكر من لغات (الآخر) مشرقاً ومغرباً، وبهذا يغني معرفة المثقفين، والمبدعين العرب، والقراء المتشوقين للمعرفة.

واحد من الذين يغنون المكتبة العربيّة هو صديقي صالح علماني، الذي عشت وإيّاه جيراناً لسنوات في (زقاق) ضيّق أصغر من (زقاق المدّق) في رائعة نجيب محفوظ، في دخلة هواؤها قليل، موحلة شتاءً، مغبرّةً صيفاً، في شقتين طالما تبادلنا الحديث وأكواب الشاي وفناجين القهوة على شرفتيهما المختنقتين بمبان فوضويّة أنشئت على أراض زراعيّة، في موقع هو امتداد لمخيّم اليرموك، قرب دمشق، اسمه (الحجر الأسود).

الحمد لله فبعد تضحيات تمكّن صالح من إنقاذ أسرته من بؤس ذلك المكان ، ووفّر لنفسه هدوءاً طالما احتاجه لمواصلة ترجمة روائع يختارها بمزاجه وحسن ذوقه.

حتى الآن، نهاية العام **2006** نقل صالح علماني إلى اللغة العربية **65** عملاً روائيّاً، وقصصيّاً، ومسرحيّاً، وشعريّاً، عن اللغة الإسبانية، لغة إسبانيا والقّارة الأمريكيّة اللاتينيّة التي تتكلّم وتكتب بالإسبانيّة (باستثناء البرازيل التي تتكلّم البرتغاليّة، وهي لغة قريبة جدّاً بينها وبين الإسبانيّة شراكة وتداخل).

في هذا العام **2006** صدر لصالح علماني كتابان مترجمان عن الإسبانية، هما (الديكاميرون) لبوكاشيو، و(صنعة الشعر) لخورخي لويس بورخيس، والذي يضّم ستّ محاضرات عن: لغز الشعر، موسيقى الشعر، الاستعارة، موسيقى الكلمات المترجمة، معتقد الشاعر، فنّ حكاية القصص.

هذه أوّل مرّة ينقل فيها صالح علماني عملاً من اللغة الإسبانيّة لم يكتب بها، فالديكاميرون رائعة جيوفاني بوكاشيو في مطلع عصر النهضة، مكتوبة بالإيطاليّة، يعتز الإيطاليّون بها كما نعتز نحن بألف ليلة وليلة.

الديكاميرون في الترجمة العربيّة تقع في سبعمائة صفحة وصفحتين 702 من القطع الكبير.

أخبرني الصديق صالح علماني بأنه وصل ليله بنهاره على مدى عشرة أشهر لتقديم ترجمة لائقة بهذا العمل الكلاسيكي الكبير بما يتمتّع به من قيمة أدبيّة رياديّة أوربيّاً وعالميّاً، والذي يرى كثير من نقّاد الأدب أنه المعلم البارز التأسيسي للرواية الحديثة.

قدّم (علماني) للترجمة بمقدّمة ضافيّة تقع في 38 صفحة للتعريّف بفن بوكاشيو، وعلاقاته الأدبيّة، ومغامراته وإحباطاته النسائيّة، وصداقته مع شاعر إيطاليا الأكبر (بترارك)، وكتاباته التي مهدّت لظهور هذا العمل الفّذ، وما لحق به من تشويه واتهام بأنه يدعو للفساد والتحلّل، تماماً كما هو الشأن مع (ألف ليلة وليلة).

تدور أحداث (الديكاميرون) في عشرة أيّام، في تلك الفترة الرهيبة التي حصد فيها الطاعون الأسود أرواح 25 مليوناً من الأوروبيين، هم حوالي ربع السكّان في النصف الأوّل من القرن الرابع عشر.

يتناوب على رواية ليالي (الديكاميرون) عشرة أشخاص، هم سبع نساء، وثلاثة رجال، نأوا بأنفسهم بعيداً عن الأمكنة التي ينتشر فيها

الوباء، طلباً للتسلّي والتسريّة بعيداً عن الأحزان والكآبة ومشاهد الموت اليومي المخيف، وتدور الحكايات بين عدّة محاور، وكّل محور تختاره (ملكة) أو (ملك) الليلة.

دانتي الليجيري (الكوميديا الإلهيّة) و(بترارك) شاعر الطليان الأعظم، و(بوكاشيو) ينتسبون إلى مدينة (فلورنسا) التي كان من تقاليد برجوازيتها رعاية الثقافة والفنون، والعناية بتزيين بيوتهم المترفة بروائع اللوحات الفنيّة.

يكتب صالح علماني في المقدمّة حول ترجمة هذا الأثر الأدبي الشامخ: على الرغم من انقضاء سبعة قرون على ظهور هذا الكتاب لأوّل مرّة باللغة الإيطالية العّاميّة – الآخذة بالانشقاق عن اللاتينيّة آنذاك – إلاّ أنه لم ينقل إلى العربيّة كاملاً من قبل، بل ظهر منه في النصف الأوّل من القرن الماضي عدد من القصص ضمن مجموعتين قصصيتين، بترجمة كامل كيلاني. وفي خمسينات القرن الماضي، ربّما في العام **1956**، وضمن سلسلة (كتابي) التي كان يشرف على إصدارها حلمي مراد، صدر الكتاب الثالث عشر من السلسلة بعنوان (الديكاميرون/ ألف ليلة وليلة الإيطاليّة) بترجمة إسماعيل كامل.

يصف (علماني) ترجمة كيلاني بأنها: أقرب إلى التعريب مثلما جرت العادة في مطلع القرن العشرين، حيث يعمد المترجم إلى إعادة صياغة النّص بأسلوب إنشائي مزخرف، وبلغة عربيّة محشوّة بالتنميق، تكثر فيها

المحسّنات اللفظيّة التي تثقل أحيانا على القصّة، ولا يتورّع في أحيان أخرى عن إضافة فقرات مطوّلة، أو الخروج باستنتاجات أخلاقيّة.

لا يغمط (علماني) حقّ من سبقه من المترجمين العرب الآباء، ولكنه بجمل قليلة يحدد فهمه للترجمة، ودور المترجم، ومفهومه للأمانة تجاه النّص المترجم، وتجاه المتلقّي العربي.

لم يشر علماني لمترجمين بعينهم من الذين كانوا يتصرّفون في النصوص، ولكنني أذكّر القرّاء مثلاً بترجمات المرحوم مصطفى لطفي المنفلوطي (ماجدولين، وفي سبيل التاج) عن الفرنسيّة التي لم يكن يتقنها، ولكنه كان يصوغ ما يترجمه غيره بلغة أدبيّة إنشائيّة لا تراعي الدقّة وتشتّط في الجموح العاطفي والبكائيّات، وبترجمات خليل بيدس الفلسطيني من أصل روسي، عن الأدب الروسي وكيف كان يبيح لنفسه الحّق في تغيير النهايات ليجعلها سعيدة بحيث لا تعكّر صفو خاطر القارئ العربي، وهو لم يكن يخفي ما (يقترفه) ملتمساً لنفسه العذر بأن مشاعرنا وأخلاقنا نحن العرب تختلف عن غيرنا.

يختتم (علماني) مقدّمته الضافية الغنيّة بإنصاف روّاد الترجمه العرب: ومع ذلك يبقى للمترجمين شرف الريادة في نقل نماذج من قصص (الديكاميرون)، وتعريف القارىء العربي في وقت مبكّر بهذا العمل الفنّي البارع الذي لم تبق لغة في العالم، مهما صغر شأنها، إلاّ وتُرجم إليها.

في ألف ليلة وليلة تنقذ جدّتنا شهرزاد نفسها وبنات جنسها من الموت المحتّم بالحكايات، وتؤنسن الملك شهريار وتطهّر نفسه، وفي (الديكاميرون) يواجه النساء والرجال الموت بقصِّ الحكايات الطريفة المسليّة والممتعة عقلاً، ولأنها حكايات حيّة إنسانيّة عميقة فإنها تعبر العصور، والمسافات، والأزمنة، وتخلد على الدهر.

في أيّام الخليفة المأمون كان المترجم يكافأ بوزن كتابه ذهباً؛ لأنه يعرّف بالآخر، ويثري معرفة قومه. وفي زمننا العربي الراهن، لا الكاتب المبدع، ولا المترجم المبدع، يُقدّران حقّ قدرهما.

وأخيراً ليس عندنا نحن الكتّاب والقرّاء سوى الكلمات التي شكرنا بها من قبل المترجمين العرب الذين عرّفونا بآداب وثقافات (الآخرين)، وأطلعونا على ما بلغته من تطوّر، يتقدّمهم الدكتور ثروت عكاشة، وجبرا إبراهيم جبرا، والدكتور سهيل إدريس.. وكثيرون يستحقّون الثناء، وهذا أقّل ما نكافئهم به أحياءً وأمواتاً.

أحسب أن المترجم العربي جدير بأن يُكرّم، وفي بالي عدد من المترجمين الجّادين المجتهدين، ولعلّ جيل صديقي صالح علماني بعد كّل ما قدّمه يستحق التكريم ونيل الجوائز أسوةً بالروائيين والشعراء، والنقّاد والقصاصين.

آن أن نتعامل مع المترجم كمبدع يتفانى في العطاء والتضحية بوقته، وجهده، رغم بخسه حقّه ماديّاً وأدبيّاً.

العام الماضي تنبّه المعنيون في مصر فكرّموا بعد التجاهل والتقصير المزمن الدكتور ثروت عكاشة الذي ستبقى الأجيال تتغذّى من روائع الفّن والشعر، التي نقلها إلى العربيّة

الصديق صالح علماني جدير بأن يُكرّم على كّل ما قدّم من ترجمات مكّنت كثيرين من معرفة اتجاهات الإبداع الروائي، والشعري، والقصصي، والمسرحي، في أمريكا اللاتينيّة وإسبانيا، فهو ترجم باللغة العربيّة للقرّاء العرب في شتّى أقطارهم، رغم الحدود والرقابات التي تباعد بينهم.

صالح علماني يُشكر على ترجمة (الديكاميرون)، وأحسب أن الشعراء العرب الذين لا يجيدون الإسبانيّة سيشكرونه على ترجمة (صنعة الشعر) لبورخيس، والذي سنشاركهم قراءته غير متطفلين، فبين الشعر والرواية وشائج، ولعلّ صالح علماني لما بين هذين الفنين من صلة، عمد إلى ترجمة هذين العملين الأدبيين معاً في عام واحد.

- صدر (الديكامبرون) لبوكاشيو، و(صنعة الشعر) لبورخيس عن دار (المدى) في دمشق هذا العام **2006** .
- نشرت هذه المقالة في القدس العربي – **2** كانون الأوّل – ديسمبر **2006**

عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى): زيتونة فلسطين

شعرت بالرضي عندما أطلقت عليه هذا الوصف اللائق به (زيتونة فلسطين)، وعنونت به كلمة عنه نشرتها مجلة شؤون فلسطينية، عندما كان يترأس تحريرها المفكّر والباحث الكبير الدكتور أنيس صايغ، رئيس مركز الأبحاث، وبمناسبة منحه جائزة (اللوتس) التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا.

أعتبر نفسي محظوظا أنني تعرفت به، بالعم (أبو سلمى)، كما كنت أخاطبه أنا وكل من يحترمه، ويعتز بمسيرته الشعرية والوطنية، وما أكثرهم.

غلب لقبه (أبو سلمى) على اسمه، عبد الكريم سعيد الكرمي، ولم يكن هذا يزعجه، بل إنه كان مكتفيا به، وإن كان يشعر بفخر بأنه ينتمي لعائلة ثقافة وأدب ووطنية، هي عائلة الكرمي، نسبة إلى مدينة (طولكرم) الفلسطينية العريقة.

اقتربنا منه، أنا وبعض كتاب وشعراء جيلي، وتعمقت العلاقة به، حتى صرنا أبناء له، هو الذي أنجب ابنا وحيدا، هو سعيد، الذي تعلّم وصار جرّاحا لامعا، وارتحل ليعيش في ما بعد في أمريكا، وليبق العم أبو سلمى مع زوجته الطيبة اللطيفة (أم السعيد) في شارع يحمل اسم شقيقه الكاتب

أحمد الكرمي الذي رحل مبكرا، واشتهر أثناء إقامته في دمشق، ويقع البيت بين بوابة الصالحية والسبع بحرات.

كنت أزوره في بيته، أحيانا مع بعض الأصدقاء، وأحيانا وحدي، وكانت (أم السعيد) تستقبلنا بابتسامتها الرضيّة المرحبة، وحين يكون غائبا تشير باتجاه آخر الشارع:

- عمكم أبو السعيد في مقهى الروضة.

أحيانا أتوجه إلى مقهى الروضة القريب من بيته، والواقع على مقربة من مبنى البرلمان السوري العريق، وأحيانا أؤجل زيارته البيتية إلى مناسبة أُخرى.

بعد رحيل زوجته ورفيقة عمره (أم سعيد)، بتنا، أنا وبعض الأصدقاء، وبخاصة الصديق حنا مقبل، نشعر بالمسؤولية تجاه (والدنا)، وحتى لا يشعر بالوحدة الموحشة اتفقنا على استضافته في بيروت كل شهر لعدّة أيام، على أن يرافقه أحد أعضاء اتحادنا في كل يوم، وبالدور.

لّما اقترح عليه ابنه الدكتور سعيد مرافقته للإقامة عنده في واشنطن، قال له مبتسما:

- أنت ابني الوحيد يا سعيد، ولكن ما رأيك أن لي هنا أبناء كثيرين يقومون على خدمتي، وهم من خيرة كتاب وصحفيي فلسطين؟! هنا، يا ابني، سأبقى في الشام، في نفس البيت الذي عشت فيه

مع والدتك قبل أن ننجبك، وبعد رحيلك إلى أمريكا، وسيرعاني أبنائي الذين لم أنجبهم.

كان لابد من تكريم (زيتونة فلسطين) المباركة، فعملنا بجهد كأمانة عامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ليكرّم بمنحه جائزة (اللوتس) عام **1978**، التي يمنحها اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا.

وحتى يكون تكريم شاعرنا الكبير لائقا بجائزة اللوتس، أعددنا لاحتفالية مهيبة في قاعة جمال عبد الناصر – جامعة بيروت العربية، وكان ذلك اليوم مشهودا حقا.

دعونا، كأمانة عامة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين شعراء كبارا، عربا، ومن بلدان غير عربية، وكان من بين الحضور الشعراء الكبار: الجواهري، نزار قباني، عمر أبوريشة...

في ذلك اليوم رفعت يافطات ترحب بالضيوف، واصطف الأشبال والزهرات على جانبي مدخل قاعة جمال عبد الناصر مرحبين بالضيوف، بينما كانت الموسيقى تصدح، والجموع تحتشد في هذا اليوم المميز. في الصف الأول جلس قادة الفصائل الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية، وكبار الشعراء العرب والفلسطينيين، يتقدمهم: الرئيس عرفات، الحكيم جورج حبش، أمين عام الحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي، القيادي الوطني اللبناني محسن إبراهيم..

تشرفت بأن انتدبت لأكون عريف الاحتفال، فرحّبت بشاعرنا الكبير (العم أبو سلمى) زيتونة فلسطين.. الذي لم يمدح في حياته سوى فلسطين، وثوارها، وشهدائها، وأبطالها، وثورات العرب، والعالم.. الشاعر الذي لم ينحن جبينه إلاّ لله ولفلسطين.

ثم توالى الخطباء، وفي الفواصل كانت فرقة (نوح إبراهيم) بقيادة الموسيقار محمد الجمل – رحمه الله – والفنان مصطفى الكرد، تقدم أغنياتها الثورية.

ذلك يوم كبير مشرّف في مسيرة اتحادنا، رغم ما كنا نعانيه من حصار، وحملات تشويه، لأسباب سياسية، فموقف الاتحاد كان رافضا لأطروحات التسوية السياسية التي انتشرت بعد حرب تشرين**1973**، وبعد زيارة السادات للقدس، واتفاقية كامب ديفيد!.

عند انتهاء الحفل، وقف الشاعر العربي الكبير نزار قباني، عند باب قاعة جمال عبد الناصر، وقال بصوت سمعه كثيرون: هذا اليوم شعرت بالفخر لأنني شاعر. وأضاف: فعل الفلسطينيون ما عجزت عنه وزارات الثقافة العربية مجتمعة!

لم ينته الأمر عند هذا الحد، فقد دُعي المشاركون، على شرف (أبو سلمى) لحفلات غداء وعشاء ولقاءات وأمسيات شعرية، استمرت طيلة أسبوع.

فيما بعد دُعي شاعرنا الكبير إلى بغداد، وهناك أُقيم له احتفال مهيب في القصر الجمهوري، حضره صديق شبابه الأستاذ ميشيل عفلق الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي، وهو زميله في الدراسة في دمشق، وهو و(أبوسلمى) كانا في أول دفعة خريجين في شهادة البكالوريا السورية عام **1927**، وكان ترتيبهما: الأول ميشيل عفلق، والثاني عبد الكريم الكرمي (أبوسلمى)، على كل طلاب سورية آنذاك.

بعدها دُعي أستاذنا وشاعرنا الكبير إلى دمشق، حيث تمّ تكريمه، فرضيت نفسه، وامتلأنا نحن فخرا به، وبمسيرة شعراء فلسطين، الذين رافقهم منذ مبتدأ مسيرته الشعرية، ولا سيما: إبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود.

لقد آمن شعراء فلسطين، ومنهم شاعرنا الكبير أبو سلمى، بدورهم الوطني، فتقدموا الصفوف، ناشرين للوعي، ومنبهين، ومحرضين، وداعين للثورة على الإنكليز والصهاينة.. وها هو صوت أبي سلمى يرعد في سماء فلسطين:

لو كان ربّي انكليزيا دعوت إلى الجحود

أبو سلمى شاعر غاضب، ثائر، وهو، وإبراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود، وحسن البحيري، ومطلق عبد الخالق، ومحمد العدناني، والعبوشي.. شعراء شعب ثائر، خاض معركة ضارية مع عدوين:

الإنكليز، والصهاينة، ناهيك عن الخنوع والنفاق والجهل، والتخلّف، والحكام العرب التابعين المتواطئين.

شعراء فلسطين تحديدا أدركوا دورهم بوعي ثاقب سابق لزمنهم، بفضل وعيهم بالقضية الفلسطينية، وبطبيعة الأعداء، فكانوا طلائع المثقفين العضويين المتماهين بحركة شعبهم الثورية الكفاحية، وبدون تنظير، وهو ما تجلّى في شعر أبي سلمى:

يا قائد الثورة سعِّر نارها

وزُجّ في قاع الردى المعتدي

واطلع على الأيام وانشر وهجا

فيه سني الجهاد والتمرّد

واخلع على الجبال أبراد العُلى

حق لها يوم اللقاء أن ترتدي

انحاز أبو سلمى إلى جانب القوى التقدمية اليسارية في فلسطين، وفي وقت مبكّر، وظل كما بدأ، تقدمي التفكير، ثوريا، فلسطينيا، عروبيا، إنسانيا..

هكذا كان، وهكذا استمرت مسيرة حياته المجيدة التي لم تغيرها النكبة، والمحن، بل لعله ازداد يقينا بصحّة خياره، وهو ما صان مسيرته، وعمّق من ثورية شعره.

كان منفتح النفس والعقل، متجدد النظرة الفنية الشعرية على كل جديد أصيل.

أذكر أنني كنت أسير معه في بوابة الصالحية ذات يوم، فسألته رأيه في قصيدة النثر التي يكتبها محمد الماغوط، فأمسك بيدي وضغط عليها، وقال: ما يكتبه الماغوط شعر يا رشاد.. وكرر كلمة شعر.. مؤكدا عليها.

فوجئت برأيه في البداية، فأبي سلمى شاعر (كلاسيكي)، ولكنني قلت لنفسي كالمعاتب: ولكنه ليس شاعرا تقليديا، فشعره معاصر، سلس، قريب إلى النفس، وهو مثقف يقرأ بلغتين، الإنكليزية والفرنسية.. وهكذا تعلمت منه درسا كبيرا، إضافة إلى ما تعلمته منه سابقا.. ولاحقا.

أبو سلمى رئيسا لاتحادنا:

قبل أن ينعقد مؤتمر الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في بيروت، في فندق (البوريفاج) القريب من الفاكهاني، في العام **1979**، كنّا – أقصد محبي العم أبي سلمى – قد عقدنا العزم، وبدأنا التحضير، لإقناعه بقبول ترؤس اتحادنا، ولكنه عندما عرضنا الأمر عليه استقبل الأمر بتردد، بل بممانعة.

لماذا؟!

لأنه لم يكن على ود مع قيادات تنفر منه، كونه لا يتقرّب، ولا يتزلّف، وغير (مضمون)، ولا يمكن التحكم به وتوجيهه، فهو ليس من ذلك النوع الذي يقدّم تنازلات.

اقتنع بعد جهد، واصطحبناه إلى بيروت للمشاركة في المؤتمر، وأقام مع الضيوف في فندق البوريفاج.

توقعنا أن يسعد قبول شاعرنا الكبير قلوب كثيرين من الكتاب، وهو ما حدث، فقد التف حوله كثيرون في لقاءاته، وبدا أنهم سيمنحونه أصواتهم، ولكن: كان هناك من (يطبخ) لعبة استبعاد أبي سلمى، ليضمن (الهيمنة) على الاتحاد، خاصة والاتحاد (أفلت) من الهيمنة في مؤتمر تونس عام **1977**.

جرت محاولات لاستبعاد بعضنا من الترشح، وأشيعت حول المؤتمر والمؤتمرين أجواء مفتعلة لإرهاب من يخرجون على (الطاعة)، واتضح لنا أن هناك من يرفض ترؤس أبو سلمى للاتحاد!.

جرت الانتخابات، وتكشّف أن هناك من (حجب) صوته عن أبي سلمى، بقصد التقليل من قيمته وأهميته، وللإيحاء بأنه غير مجمع عليه!

هي ولدنة، وقلة حياء، وألاعيب سياسية رخيصة اندمج فيها الوصوليون، والأدوات، والباحثون عن (مواقع) على حساب الاتحاد، والحركة الثقافية الفلسطينية!

بدأت المساومات على موقع (أمين عام) الاتحاد، وسمعنا من ممثلي حركة فتح: موقع الأمين العام (للحركة)!

لمسنا ألما كبيرا عند أستاذنا أبي سلمى، فهو كان مترددا جدا في قبول الترشح، وحجب بعض الأصوات في الانتخابات عنه فاقم أله، ونفّره، وسمعته يقول، وكنا معه أنا والصديق حنا مقبل: أتيتم بي إلى أجواء الولدنة، والألاعيب السياسية الرخيصة التي لا أرضى لنفسي أن أنخرط فيها.. سامحكم الله!

ثم أخبرنا بأنه يريد السفر إلى دمشق، فرجوناه أنا وحنا، وتدخل السيد محمد أبو ميزر، والشاعرة مي صايغ، للضغط عليه بمحبة لتأجيل سفره، فاستجاب مكرما.

دخلنا في مفاوضات، وقدمنا اقتراحا محددا لا نحيد عنه: شاعرنا ووالدنا أبو سلمى رئيس للاتحاد، ومهماته: يترأس اجتماعات الأمانة العامة عند حضوره، والوفود إلى البلاد الصديقة والشقيقة إن كان مشاركا في الوفود، ويوقع على كل شيك يخرج من الاتحاد مع الأمين العام، وأمين الصندوق.. فاستجيب للاقتراح بعد نقاش طويل، تدخل فيه كثيرون، وهكذا عقدنا اجتماع الأمانة العامة، وثبتنا ما اتفق عليه.

عدنا إلى أبي سلمى، حنا وأنا وصديقنا ناجي العلي – وكان قد انتخب في الأمانة العامة – وأبلغناه بما أنجزناه فابتسم ابتسامة الرضى، هو الذي وجد فينا أبناء له، وامتدادا.. وأننا أبدا لا نسمح بأن تمس كرامته.

الرحيل..والدفن في مقبرة الشهداء بمخيم اليرموك

توفي أبو سلمى في نيويورك، بتاريخ **11**تشرين أول/**1980**، بعد فترة قصيرة من نقل ابنه الدكتور سعيد له من موسكو، بعد أن يئس الأطباء هناك من شفائه، وكانوا قد بذلوا أقصى جهودهم لإنقاذ حياة شاعرنا الكبير.

كان والدنا أبو سلمى قد أوصى أن يُدفن في مقابر الشهداء في مخيم اليرموك، المتداخل مع دمشق الشام التي عشقها، وعاش فيها، والتي عرفت دائما قيمته، فقدَّرته أعلى تقدير.

جموع حاشدة تدفقت إلى مخيم اليرموك، وبعد الصلاة على جثمانه الطاهر، اندفع عشرات الكتاب والصحفيين والفنانين الفلسطينيين، وتسابقوا لرفع نعشه على الأكف، وقرروا – رغم بُعد المقبرة – أن يواصلوا حمله حتى ضريحه، ليدفن هناك بين أبنائه الفدائيين، وإخوانه المناضلين، وبنات شعبه الذي أحب.

جنازة مهيبة اتجهت من مسجد فلسطين، مارة في شارع حفَّت به الجماهير، واعتلت أسطح بيوته، وأطلت من النوافذ عشرات السيدات الفلسطينيات، وأمطرن بالأرز والورد والياسمين رؤوس المشيعين، والنعش المفتوح على السماء.

كنت أمضي بين الحشود وأنا أستعيد بعض روائع شعر والدنا، ووجدتني أردد هذه الأبيات من قصيدته (الحروف الحمر):

أيها الحاملون أحرفنا الحمر صلاها تشرد وسعير

ما عليكم إذا مشيتم على الجمر قليلاً إن اللهيب طهور

قد مشينا عليه دهرا، وهذا الدم في الدرب شارة ونذير

شعرنا عابق الشذا من دمانا تتلظى حروفـــه والسطور

رفضت السيدة وزيرة الثقافة السورية، الدكتورة نجاح العطار أن تتجه للمقبرة في سيارتها، وردّت قائلة مستنكرة وعاتبة:

- ألست منكم؟.. ألست تلميذة شاعرنا الكبير (أبو سلمى)؟ ألست ابنة سورية وفلسطين؟! معكم سأمضي مشيا على قدمي تكريما لوالدنا وشاعرنا الكبير.

أبّنت الدكتورة العطار بكلمة مؤثرة لائقة معبرة أبا سلمى، وارتجلت أنا كلمة بللتها الدموع والفخر والعهد على الوفاء لفلسطين، ورسالة المثقف التي جسَّدها والدنا.. وعندما تقدَّم الأستاذ حسن الكرمي، شقيق أستاذنا، صاحب البرنامج الثقافي الشهير (قول على قول) الذي كان يُبثُّ من إذاعة لندن على مدى عقود، وصاحب القاموس الكبير الإنكليزي ـ العربي، والكتابات في اللغة العربية، طوى الورقة التي أعد فيها كلمة تأبينه لشقيقه، وقال مخاطبا الجموع: بعد كلمة الأستاذ رشاد أبو شاور، لم يبق لي كلام.. وارتجل كلمات قليلة مؤثرة.

هناك، في مخيم اليرموك، محروسا بألوف الفدائيين الشهداء يرقد الجسد الطاهر لواحد من أعظم من أنجبتهم فلسطين: والدنا الشاعر الكبير عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) زيتونة فلسطين.

هذه الكلمة كتبت ليضمها مجلد الأعمال الشعرية الكاملة، للشاعر الكبير (أبو سلمى).

مئويّة نـجاتي صدقي

ولد نجاتي صدقي في القدس يوم 15 أيّار عام 1905، أي أن دولة العدو ولدت في نفس يوم مولده على أرض وطنه فلسطين ولكن بعد 43 سنة، فيا للمصادفة العجيبة!

جدّه عسكري تركي، ووالده المقدسي كان عسكريا مثقفاً مولعاً بالموسيقى، امتلك (غرامفون) كان يضعه في مكان مرتفع ليسمع الموسيقى المنبعثة منه كل مّار، أو مقيم على مقربة من بيته، مستمتعاً بنشر رسالة حب الموسيقى، وتذوّق الفّن. في هذا البيت نشأ نجاتي صدقي، ومنه خرج إلى العالم، مستطلعاً، باحثاً، منحازاً للحريّة.

عمل في البريد لفترة واحتكّ بالشيوعيين الذين أغروه بالسفر إلى موسكو، وعلى غير علم من أسرته غامر بالسفر إلى عاصمة البلاشفة للدراسة، تاركاً وراءه رسالة لوالده يخبره فيها بسفره ويطمئنه على أنه سيعود، وهو ما دفع الوالد الحريص على ابنه أن يتّصل بسلطة الانتداب طالباً منها إرسال بارجة إلى عرض البحر لاستعادته!.

درس نجاتي صدقي في جامعة (كوتف) التي كانت تعّد طلاّب البلدان المستعمرة ليكونوا قادة، وكان التركيز في تلك الجامعة خاصّة للطلّاب القادمين من الشرق على تاريخ الاستعمار والفتح الأوروبي والإمبريالي.

درس نجاتي صدقي الاقتصاد السياسي، وفي تلك الفترة حمل اسم (مصطفى سعدو)، واختصاراً (سعدي)، وهناك تعمّقت علاقته بالشاعر التركي ناظم حكمت، وخاض نقاشات عميقة مبكّرة حول حركة التحرر القوميّة العربية.

عاد نجاتي صدقي إلى فلسطين عام **1929**، وهو ما يؤكّد عليه الدكتور إبراهيم أبو هشهش في رسالة الماجستير التي أعدّها بإشراف أستاذه الدكتور عبد الرحمن ياغي والتي تحمل عنواناً لها: "نجاتي صدقي: حياته وأدبه" فلاحقته قوّات الانتداب البريطاني واعتقلته..

بعد الإفراج عنه توجّه إلى فرنسا في الطريق إلى إسبانيا للمشاركة في الثورة الإسبانيّة..

مذكرات نجاتي صدقي التي أجهد الشاعر والباحث الفلسطيني الكبير حنّا أبو حنّا نفسه وهو (يتابعها) إلى أن صدرت عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية عام **2001**، يمكن اعتبارها كنزاً، لا لأنها تكشف لنا خفايا حياة هذا الإنسان الفذّ، ولكن لأننا نقرأ في فصولها أسرار وأسباب فشل الحركة الشيوعيّة في فلسطين، وطبائع الاستبداد التي كانت السمة السائدة على تفكير وسلوك قادة مستبدّين يتميّزون بالولاء الأعمى لموسكو، ويأتمرون بأوامر (الكومنترن)، ويجهلون ويتجاهلون ظروف بلدانهم، وأممهم، وشعوبهم.

عمق إنسانية نجاتي صدقي نلمسه في وصفه للسجناء البسطاء الذين تعرّف بهم في معتقلات الإنكليز، ومنهم (أبو جلدة) و(العرميطي)، وهما بطلان شعبيان اشتهرا إبّان الثورة الفلسطينية الكبرى..

اصطدم نجاتي صدقي مع خالد بكداش في موسكو حول الطبيعة الثوريّة لحركة التحرر القوميّة العربيّة، التي رأى فيها بكداش حركة رجعية منطلقاً من (كرديته)، في حين انتصر له ماوتسي تونغ البعيد النظر، والذي رأى إن حركات التحرر القوميّة لابُدّ أن تعادي الاستعمار، وبالحتم ستتصف بالثوريّة.

توجّه نجاتي صدقي إلى إسبانيا وأوكلت له مهمة الاتصال بالمغاربة الذين كانت تجلبهم قوّات (فرانكو) الرجعية من بلدهم بالقوّة، وتسوقهم إلى حرب لا مصلحة لهم فيها، ناهيك عن إنهم لا يعرفون شيئاً عن المتحاربين وأهدافهم الحقيقيّة!.

نجاتي صدقي تعامل مع (الأسرى) المغاربة الذين يقعون في قبضة القوّات الثورية كضحايا لا كقوات رجعيّة معادية، وهو بذل جهداً في إعادة بعضهم إلى وطنه بعد أن شرح لهم طبيعة المعركة الدائرة على الأرض الإسبانيّة.

في فرنسا اختلف نجاتي صدقي مع الشيوعيين الفرنسيين، الملغومين صهيونيّاً، والذين طلبوا تجميده، ومن بعد ما تفاقمت الخلافات مع بكداش تمّ فصله من الحزب، وبدأت مرحلة جديدة في حياته..

نجاتي صدقي الذي أجاد ثلاث لغات: الروسية، الإنكليزية، الفرنسية، عني بتثقيف نفسه، وبفضل إجادته للغات العالميّة اطلع على الأدب العالمي القصصي والروائي، وانعكس هذا على كتابته القصصية المتطوّرة، وهو ما جعل كثيراً من النقّاد والدارسين يعتبرونه رائد القصّة في فلسطين والأردن – مع عدم التقليل من دور محمود سيف الدين الإيراني – ويكتبون حول نتاجه المقالات والدراسات والأبحاث، ويتوقفون عنده في رسائلهم الجامعيّة.

لعلّ نجاتي صدقي أوّل من كتب في الموسيقى الكلاسيكيّة، فدراسته عن السيمفونيّة التاسعة لبتهوفن – يتضمنها كتاب المذكرات في الملحق – تنّم عن معرفة عميقة تأسست في بيت أبيه المولع بالموسيقى، وثقافة موسيقيّة رفيعة، حتى إنه اشتّق مصطلحاً عربيّاً للسيمفونيّة وهو (الإيقاع)، ففي عام **37** كتب مقالة بعنوان: الإيقاع الموسيقي التاسع لبيتهوفن، وتحت بعنوان فرعي: "أعظم قطعة موسيقيّة عرفها البشر حتى الآن"..

صدرت لنجاتي صدقي ثلاث مجموعات قصصية نحا فيها منحى الكتابة الواقعية، والتعبيريّة، والرمزيّة، ولم يغلق على نفسه الأبواب، فهو حرّ التفكير والرؤية، يلتزم بقضية وطنه ولا يتعصّب لمدرسة أدبيّة بعينها.

ترجم نجاتي صدقي أعمالاً أدبية، وفكرية، والأعمال الأدبيّة التي ترجمها فتحت الآفاق أمام القصاصين والشعراء، فقصص الأمريكي إدغار ألن بو الذي يعتبر رائد القصّة القصيرة ، والمختارات القصصية العالمية،

وغيرها، تدّل على إنه لم يختر تلك الترجمات صدفة، ولكنه قصد تعريف المعنيين بما بلغته القصّة في العالم.

لنجاتي صدقي تحليلات فكرية للواقع الفلسطيني والعربي سبق بها زمنه، فهو بعقله المستقّل الرافض للتبعيّة درس واقع وطنه، وخرج بنتائج تتباين وتتناقض مع الأوامر الصادرة من موسكو، والتي ينفذها حرفيّاً قادة محليون تابعون مغلقو التفكير.

من يقرأ أطروحة نجاتي صدقي عن الحركة الوطنيّة العربيّة ربّما يفاجأ ويدهش لتحليلات هذا (المفكّر) و(الكاتب) و(المناضل) العضوي الميداني.

بعض فصول مأساته وأسرته أصغينا لها في الرسالة التي وجهتها ابنته (دولت): سنة **46** أتيحت لي فرصة العودة إلى فلسطين، لكن السلطات السوفيتيّة لم تسمح لي بالمغادرة. بعد سنين تكشّفت لي الحقيقة، فعندما كانت أمّي تستعّد للرجوع من موسكو إلى فلسطين، قال لها خالد بكداش: لن تري ابنتك أبداً.. وقد حقق وعيده. إن مصير نجاتي ومأساة عائلتنا كلّها على ضميره.

يوم **14** أيّار احتفلنا بمئويته في مقّر رابطة الكتّاب الأردنيين، بحضور ابنته هند القادمة من أثينا مع زوجها، وأصغينا لها تحكي جوانب من سيرة والدها العظيم، ثمّ نصغي لرسالة ابنه سعيد البروفسور في الرياضيات في جامعات البرازيل.

وختاماً أسأل: أين المؤسسات الفلسطينيّة من ذكرى مئوية هذا المبدع الكبير السابق لعصره؟ أليس من العار أن تبلغنا هند نجاتي صدقي بأن العائلة ستعمل على نشر نتاجه كاملاً على نفقتها؟!

أحمد الشقيري.. واحد من روّاد أدب (الرحلة)

عُرف الأستاذ أحمد الشقيري كمحام لامع في فلسطين قبل النكبة، وكشخصيّة وطنيّة لمعت في عمر مبكّر، وكدبلوماسي بارع في الأمم المتحدة ينافح عن قضايا العرب، مشرقا ومغربا، ممثلاً لسورية، والسعودية،

ثمّ كمؤسس لمنظمة التحرير الفلسطينيّة، وكخطيب لا يشقُّ له غبار، يمزج الثقافة الواسعة والمعرفة العميقة بالتاريخ العربي الإسلامي، وبتاريخ كفاح شعوب وأمم العالم، وتاريخ فلسطين الحديث والقديم، وككاتب للمذكرات السياسيّة نادر المثال بين القادة والزعماء العرب، وهذا ما استوقف الدكتور أنيس صايغ الذي كتب عنه في مقدمته لأعمال الشقيري الكاملة: إلاّ أن فنا معينا تفوّق فيه أحمد الشقيري على نفسه وعلى غيره من السياسيين والكتّاب العرب، وعلى المثقفين بوجه عام، إنه فن السيرة الذاتية. إن كتبه الثلاثة في تأريخ حياته وأعماله هي – برأيي – الثالثة بعد "الأيام" لطه حسين، و"حياتي" لأحمد أمين، وهما سيدا السيرة الذاتية، وإن تفوّق العملان الرائدان في التصوير الأدبي الفنّي، فقد تفوّقت كتب الشقيري في الوصف السياسي العملي (المجلّد الأوّل ص**15**).

كانت مفاجأة لي، وربما لغيري، أن المجلّد الأوّل من الأعمال الكاملة للأستاذ أحمد الشقيري ضمّ كتابا مجهولاً، لم أكن قد اطلعت عليه، ولم أكن قد سمعت به، وهو كتاب: "من القدس إلى واشنطن".

يصف الشقيري كتابه بأنه: خواطر المؤلف حين سافر إلى أمريكا لتأسيس المكتب العربي.

أمّا السفر فكان في شهر تموّز عام **1945**، والكتاب صدر في العام **1947** عن مطبعة السروجي في عكا.

دهشت وأنا أقرأ الفصل الأوّل، والفصول كلّها قصيرة، مكثفة، ليس فيها ثرثرة وإطالة، والمُعنون بـــ (من البحر الميّت إلى النيل)، ذلك أنني لأوّل مرّة أسمع عن إقلاع طائرات تقل المسافرين من البحر الميّت إلى نهر النيل في مصر!

يصف الأستاذ الشقيري بدء سفره، وقلقه من السفر البعيد إلى العاصمة الأمريكيّة واشنطن لتأسيس المكتب العربي للإعلام: فنحن نتهيّب الأسفار البعيدة، ذلك أننا لم نألف أن نرى الدنيا صغيرة متقاربة، على حين أن الرجل الأجنبي يطوف العالم كأنه يؤدي عملاً عاديّا لا يحس فيه جهدا ولا رهقا (ص**9**)

يصف هبوط السيّارة بالمسافرين من القدس إلى الأغوار حيث البحر الميّت: أخذنا نهبط من مشارف القدس إلى أغوار (الغور)، تلهبنا الرياح المحمولة على أكف الوهج والوقد. ويضيف: وكنّا في طريقنا نشاهد

السيارات الكبيرة تحمل وسوق المعادن المستخرجة من البحر الميّت، بعد أن بقيت في جوفه أجيالاً. حقا لقد كان البحر ميتا، وإنه من الإسراف في الظلم أن نسميه الميّت، وهذه المعادن الحيّة تخرج من جوفه الأبدي، فتبدو خصائصها في الحياة والموت.(ص9)

وعن رحلته الأولى في الطائرة يكتب: ركبنا الطائرة المائيّة من قاعدها في البحر الميت، وكانت أول خبرتي بركوب الطائرة من قواعد الماء واليابسة على السواء، ولعلّ المستقبل يطالبنا بقواعد في الهواء، وكدت أن أكون راجفا واجفا حين رأيتني أجتاز متون الفضاء، والتمست شجاعتي أبحث عنها في أعماق نفسي، وأوشكت أن تخونني لولا أني رأيت بعض السيدات والأطفال يقتعدون أماكنهم برصانة وهدوء، فقعدت وتصابرت (ص9).

نبوءة الشقيري بقواعد في الجو تحققت، فها هي المركبات الفضائية تدور في هذا الكون الفسيح، وتنقل الصور عن المجرّات البعيدة المجهولة..

تحط الطائرة في النيل، وينتقل إلى فندق (شبرد) في القاهرة، ثم ينتقل إلى بنغازي في ليبيا، فيصف لعب العاصفة بالطائرة: وظلّت الطائرة تمزّق سكون الفضاء من غير ارتجاج أو اهتزاز حتى أقبلت علينا عاصفة ثائرة لعبت بالطائرة لعب مارد متجبّر، وغدت الطائرة التي كانت حتى الآن تسيطر على الجو وتمزّق آفاقه موضع عبث وسخريّة بين أيدي العاصفة الجبّارة.. وهبطنا في بنغازي في أعقاب الليل فشملتنا رهبة المكان الذي تداولته الجيوش المتحاربة مرّات ومرّات (ص13)

وعن رحلته إلى واشنطن يتساءل، وهو يعبر سماء بلاد العرب: ولكن خاطرا واحدا أقضّ مضجعي لم أجد له تعزية ولا تسلية، ذلك أن هذه الرحلة كلها، من البحر الميت حتى شمال أفريقيا، قد كشفت عن مطارات ومطارات، مرصعة في الصحراء، وعلى مقربة من المدن، آخذة بالنمو والازدياد. هنا في مواطن العرب مطارات تُنشأ وتبنى، وأنا ذاهب لأنشئ مكتبا عربيّا في واشنطن، أحرّك فيه لساني وقلمي، أنا أُعنى بالكلام ليسمعوا، وهم يمضون في إقامة القلاع والحصون.. (ص**17**) .

تمضي به الطائرة في سماء المحيط، فيصف الرحلة الطويلة المخوفة: أخذت الطائرة تجوز بنا أطباق الفضاء في ليل رهيب فوق بحر مخوف انقطعت في سمائه كل معاني الأنس، فأبدلت بظلمات الوحشة والرهبة. والرحلة تستغرق ثلاث عشرة ساعة متمادية، وقد توسطتها عاصفة مدلهمة رجرجت الطائرة من غير رحمة ورفق، وأنذرنا الضابط بأن نأخذ الحذر لأنفسنا فزاد ذلك من دهشتنا وخوفنا. وحين رأينا الجنود العائدين من ميادين الحرب يقطبون جباههم، وقد غاضت أشواقهم للأهل والوطن، فقد ازدادت مخاوفنا، وطافت نفوسنا مذعورةً في كل مجالي الفكر وآفاق الزمن.. (ص**24**)

ولأن السفر يزوّد الإنسان بمعرفة جديدة، ويدفعه للتفكير والتأمّل، فإن الأستاذ الشقيري الحسّاس للجمال، والوطني الغيور، وبعد الهبوط في مطار (برسك) في شمال الولايات المتحدة.. يكتب: ركبنا السيارة لنطوف في شوارع هذه القرية التي قيل لنا أنها قرية، أستغفر الله بل إن هذا هو

الفردوس الذي فقده الفلاسفة والشعراء، وها هو جاثم في هذه الروضة، وقد أحاطت به المروج الجميلة، وأطلّت عليها الهضاب المكسوة بالفتنة والدلال (ص27)

ويمعن الشقيري في وصف تلك القرية – الجنّة: ولله ما أجمل هذه البيوت المنسقة أبدع تنسيق، لكل منها حديقته الزاهرة، ومرجه الوادع، وملعبه الذي يمرح فيه الأطفال، ومن حولهم وطن يقدّم بين أيديهم مفاتنه وحسنه، ليقدموا بين يديه دمهم وشبابهم (ص27)

ولأن الشقيري يعرف جوهر المواطنة والانتماء لوطن حقيقي يمنح الإنسان الحرية والكرامة، فإنه يكتب: هناك عرفت لم يستبسل هؤلاء الناس من أجل وطنهم، فليسوا حين يدعون إلى ركوب البحر والجو، يحاربون عن وطن جامد جاحد، ولكنهم يبادلون الوطن ما قدّم لهم في الطفولة والصبا من نعماء الحياة.. (ص27)

ألا تصيبنا الحسرة ونحن نقرأ هذه الكلمات بما تختزنه من تشخيص لواقع حالنا نحن المواطنين العرب الغرباء في أوطاننا؟!

بلادنا جميلة وغنية بثرواتها، ونحن محرومون من خيرها وجمالها، والأوطان ليست نشيدا وعلما.. إنها مواطنة للجميع، لا لحفنة من الناس، يأخذون كل شيء، ويطالبون (المواطنين) بالتضحية والموت!

يصف الشقيري ما يشاهد من غريب فن العمارة في نيويورك، إذ يقف مأخوذا أمام ناطحات السحاب: وحين عدت إلى الأوتيل بين العمارات

المتناطحة وقفت إلى جانب واحدة منها أحاول أن أبلغ ببصري أعلاها فخُيّل إلى أن رأسي قد دار حول كتفي، وأن كتفي قد أخذا يميسان في الهواء (ص29)

في فصل (النبأ الرهيب)، ينقل الشقيري صدى قصف هيروشيما بالقنبلة الذريّة: أفاق العالم صبيحة هذا اليوم والنبأ الرهيب يدوّي في الآذان، ويذهل البصائر والأبصار.. القنبلة الذرية التي قذفت على المدينة اليابانية فصهرتها وأرجفتها إلى الأعماق، ثمّ أفشت في كل آفاقها حشودا من الموت والنار والكيمياء (ص 35)

ويضيف عن حال اليابان، بفصل صغير أقلّ من صفحة بعنوان (اليابان تجثو): قنبلتان أنزلتا شللاً عاما في أمة بكاملها فجاءت تطلب السلم من غير قيد ولا شرط، وانقلب معبودها عبدا، وسيدها مسودا، وقائدها مقودا، وللعلم على الحريّة آفات وآفات!

تلك كانت واحدة من آفات العالم التي ما زالت تتهدد أمن البشرية جمعاء، والتي وإن لم تستعمل مرّة ثانية بعد هيروشيما.

للعلم آفات وتلك أبشعها، خاصة وأنها لم تكن ضرورية فاليابان كانت متعبة من الحرب وعلى وشك الاستسلام، وهو ما ينقله الشقيري على ألسنة أمريكيين فجعتهم تلك الجريمة غير المسبوقة في تاريخ البشرية!

لم تكن رحلة الشقيري لأمريكا للاستمتاع الشخصي، بل كانت (سفارة) كما كان أسلافنا يصفون من يُرسلون في مهمات سياسيّة.

ومهمة الشقيري كانت الشروع في الدعاية للقضيّة الفلسطينيّة.. وأين؟ في (وكر) الحركة الصهيونيّة المهيمنة على الصحافة وغيرها!

في بلد الديمقراطية لم يجد الأستاذ الشقيري مكانا يستأجره للمكتب العربي: لائقا أو غير لائق. إنه ليحرجني، وقد مضى علينا شهران تقريبا، ونحن نفكّر في مكان يحتوينا، لنخدم بلادنا، وبلادنا تريد أن تطمئن إلى مكانها الذي يحتوينا. وفوق ذلك فإن الجماعات الصهيونيّة تعبئ كل قواها لتلقي آخر جنودها وعتادها في هذه المعركة الحاسمة، ففي هذه الأيام تقرر المصائر وتهبط الأقدار. والصهيونيّة تؤمن أنها إن لم تظفر ببغيتها الآن فلن تظفر بها بعد الآن، وإنها لتجد الآن في الفوضى الأوربية مناحة تستدر بها عطف العالم لتهجير يهود أوربا إلى فلسطين، والصهيونية لم تفتأ تلّح وتلحف خشية أن لا تلوح مثل هذه الفرصة أبدا.

ويضيف الشقيري في نهاية الفصل المعنون (حيرة وصرخة): والويل للأمة التي لا تعمل حين تلوح فرصة العمل (ص **47**)

صحافة أمريكا التي يُسيطر عليها يهود أمريكا لم تنقل كلمة من المؤتمر الصحفي للأستاذ الشقيري، اللهم سوى مقالة صغيرة للصحفي بيتر أديسون في صحيفة (واشنطن ديلي نيوز)، أثنى فيه على براعة الشقيري ولغته الإنكليزيّة التي تكاد تبّز لغة أبرع المتحدثين بها.

تلك الصحافة تضّج بالدعوة لفتح أبواب الهجرة لفلسطين، وبتصريحات الرئيس ترومان (بطل) قصف هيروشيما وناغازاكي بالقنبلتين

الذريتين، التي ينكر فيها أن الرئيس روزفلت وعد الملك عبد العزيز آل سعود بعدم التدخل في قضية فلسطين (ص **48**)

بعد طول جهد يفتتح المكتب، ويبدأ الشقيري والطاقم الذي معه في إصدار نشرة حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين. يكتب في فصل دال عنوانه كلمة واحدة (خيبة): أصدرنا نشرة حول الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وقد أوضحنا فيها إصرار العرب، حكومات وشعوبا، على مقاومة الهجرة اليهودية إلى فلسطين، واستمساكهم في إقامة حكومة عربيّة ديمقراطية في فلسطين، وقد أرسلنا هذه النشرة إلى الصحافة الأمريكيّة، وإلى الكتّاب، ومعلقي الإذاعات، وممثلي وكالات الأنباء العالمية.. وكانت النتيجة أن أهملت أكثر الصحف ذكر هذه النشرة أو أشارت لها.

يتساءل الشقيري: كيف السبيل إلى الجمهور إذا كانت الصحف موصدة في وجوهنا؟! (ص **50**)

يواصل الشقيري فصول الكتاب، فيقدّم نماذج عربيّة وإسلامية مهاجرة إلى أمريكا، تؤمن بفلسطين، وحق شعبها في الاستقلال، جاهزة للتضحية، وتقديم أقصى ما تملك، وهذا ما يعزيه.

ولكن الرحلة شاقة للوصول إلى المجتمع الأمريكي الذي تهيمن على عقله، وتلغي وعيه، وتحرمه من المعرفة، صحافة منحازة تماما للحركة الصهيونية وأطماعها في فلسطين.

بعد ستة أشهر يقفل الشقيري عائدا (إلى الوطن) ولكن ليس في جوف الطائرات، ولكن على متن سفينة تمخر المحيط، يرافقه فيها الوزير السوري ناظم القدسي، والأستاذ وهيب بك دوس عضو مجلس الشيوخ المصري، والذي يحفظ شعر شوقي ويلقيه بشكل ساحر.

يختتم الشقيري كتاب رحلته بفصل جميل بعنوان: الصخرة.. الصخرة.

وكي لا يذهب فكر القارئ إلى الصخرة في القدس، فإن الصخرة هنا هي (جبل طارق) والشقيري المولع بالتاريخ، ما أن يذكر ربّان السفينة اسم المكان، حتى يستعيد أمجاد العرب، ويشق على نفسه ما يعانونه في أيامهم، فيستعيد بيت الشعر ذائع الصيت بما فيه من لوم وتقريع:

ابك مثل النساء ملكا مضاعا

لم تحافظ عليه مثل الرجال

ورأيت بعد ذلك كله عربا يجوسون خلال الأندلس لا منتصرين ولا فاتحين، ولكن زائرين ومتفرجين، فيقفون عند الآثار يصعدون الأنفاس ويكفكفون العبرات، ورأيت بينهم شاعرا نصرانيا عربيّا، ذكي الفؤاد مرهف الحس، يطوف بالمسجد في قرطبة، وها هو يشرئب بعنقه نحو مئذنته الفاتنة، يسمع أجراس النواقيس تبعث رنينها في الآفاق فتفيض الحسرة في نفس الشاعر يبعثها آيا من الشعر:

يا أيها المسجد العاني بقرطبة

هلاّ تذكرك الأجراس تأذينا؟!

هذا هو بعض ما تركه الأستاذ أحمد الشقيري، الرائد في مجالات عدّة، أدبا، وسياسة، وبناء لمنظمة التحرير، وكاتب مذكرات متميز، وخطيب مفوه.. ورائد من روّاد أدب الرحلة العرب في النصف الأوّل من القرن العشرين!

* القدس العربي، الخميس 30 حزيران 2011

الجزء الثاني

السرد الأليف

في قنديل أم هاشم .. أزمة المثقّف العائد من الغرب

لفتت هذه الرواية القصيرة، المركزّة ، المشحونة، انتباه النقّاد والقرّاء منذ صدورها – وزادها شهرة نقلها إلى السينما وتقديمها في فيلم حقق نجاحاً جماهيرياً – حتى باتت كما يقال موضع التركيز عند الحديث عن الكاتب الكبير يحيى حقي، وهذا ما كان يضايقه، فهذا المبدع الكبير، القاص، الناقد، كاتب السيرة، صاحب المقال الأنيق المعطّر الجذّاب، المترجم، متعدد المواهب، رأى أنه يتّم الغّض من قيمة منجزاته بالتركيز على قنديل أم هاشم.

وأم هاشم هي السيّدة زينب، ابنة الإمام علي، شقيقة سيدنا الحسين، ولها مسجد وميدان في القاهرة يعرفه كل من زارها، حيث يرى هناك حركة الحياة اليومية الشعبية، ومدى انجذاب البسطاء من عامة الشعب المصري – قاهريين وريفيين – الوافدين لزيارة السيدة والتبرك بمقامها، والصلاة في مسجدها.

ما هي هذه الرواية الصغيرة التي تركت كل هذا الأثر، وتمتعت بكل هذا الحضور الطاغي؟

يروي (أم هاشم) حفيد للجد رجب عبد الله، التقي المؤمن البسيط، الذي يحضر من الريف لزيارة السيدة صحبة والده. يدفعه والده في المقام

ليبوس العتبة التي يدوس عليها زوار المقام، وسط دهشة نظرات القاهريين الذين يرون في الأمر مبالغة عاطفية من فلّاحي الصعيد الطيبين.

ينتقل الجد رجب بأسرته إلى القاهرة، ويقيم على مقربة من مقام (أم هاشم) بحيث تكون (الميضئة) قبالة البيت، ويفتتح له دكّاناً يسترزق منه.

هذا مفتتح الرواية، والمدخل إلى عالمها البسيط، فالأحداث فيها محدودة، والشخصية المركزية هو إسماعيل الذي تدور (الحكاية) حوله، بحيث تتضاءل بقيّة الشخصيات التي يؤدي حضورها لخدمة تطوّر الشخصية الرئيسة والأحداث، كالجد الذي هو والد بطل القصّة – هو جد الراوي، والد إسماعيل – والأم، والفتاة فاطمة النبوية ابنة العم التي تعاني من رمد العيون، وهي مقطوعة ليس لها أحد سوى عائلة عمها الذي كفلها، والراوي الذي نقرأ كلماته ولا نعرف عنه شيئاً سوى أنه حفيد الجد رجب، وابن شقيق إسماعيل.

شقيقا إسماعيل اللذان يرد ذكرهما بشكل عابر لا نعود نعلم عنهما شيئاً، فالحكاية (مسددة) كالطلقة لتذهب إلى هدفها، تخرج من القلب – كما قال الكاتب الكبير يحيى حقي في معرض تفسيره للاهتمام الذي حظيت به أم هاشم – لتصل إلى القلب، من قلب الكاتب إلى قلب القارئ مباشرة .

إسماعيل هو الوحيد الذي أفلح في الدراسة، ولذا أراد والده له أن يتعلم وأن يكون طبيباً، ولكن علامات إسماعيل عند نجاحه في (الثانوية) كانت ضعيفة ممّا يعني عدم قبوله في الجامعة المصرية كدارس للطب.

أحد أصدقاء الشيخ رجب ينصحه بإرسال إبنه إلى بلاد برّه، إلى أوربة، فهناك في بريطانيا سيتمكن من دراسة الطب. الفكرة تدور في رأس الرجل، يقلبها وتقلب على نارها فيقرر، مع معرفته بمدى التضحية المطلوبة من الأسرة، إن هو أرسل إسماعيل إلى بلاد برّه لدراسة الطب.

سيحتاج إسماعيل إلى خمسة عشر جنيهاً في الشهر تكاليف دراسة ومعيشة، وهذا يعني أن تعيش الأسرة على الخبز الحاف، أو الخبز والفجل، وهو ما تحملته الأسرة عن طيب خاطر.

يسافر إسماعيل إلى بريطانيا، وهناك يدخل الجامعة، وبعد سبعة أعوام يتخرج طبيباً مختصاً في علاج العيون. يلمع إسماعيل، وتعرض عليه الجامعة العمل، ولكنه يقرر العودة إلى الوطن.

كان أستاذه يمازحه وقد أعجب بنباهته وتفوّقه:

- أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصّت فيك يا مستر إسماعيل. إن بلادك في حاجة إليك، فهي بلد العميان.

ولأن بلاده بحاجة إليه فقد عاد، ولكن العودة لم تكن بسهولة السفر، فالبداية هي بداية شاب (خام) بريء، سليل أسرة صعيدية قاهرية متدينة،

والعائد هو طبيب عاش لسبع سنوات في بريطانيا.. وما أدراك ما الحياة في بريطانيا!

ماذا جرى لإسماعيل هناك، ما مدى تغيّره؟ هل بقي كما سافر؟ هل حفظ وصيّة والده وسارت حياته على هدي بساطتها وسذاجتها؟ هل كان بمقدور وصيّة والده له بالعفّة والحيطة من بنات أوربة، والحفاظ على دينه، أن تشكّل سوراً يقي روحه من المؤثرات الحضارية الغربية؟!

هناك، كما يعلمنا (الراوي) حفيد الحاج رجب، وابن أخ الدكتور إسماعيل، عرف إسماعيل النساء، وقع في قصّة حب مع (ماري) زميلته في الجامعة، التي علّمته فنون الجسد، وهزّت مفاهيمه عن الشرف، وسخرت من عواطفه المبالغ بها.

ماري التي أعادت صقله تتمرّد على العادة والروتين، ولذا تتركه وتنشئ علاقة مع واحد من بني جنسها، كأنما أنهت مهمتها في تبديل إسماعيل وتغييره.

عندما حان موعد سفر إسماعيل حنّ إليها، طلبها فاستجابت، ومنحته من جديد جسدها للمرة الأخيرة، هو الراحل نهائياً إلى شرقه القديم.

لم يكن الانفتاح الجنسي وسهولة العلاقة بين الرجل والمرأة هو ما أحدث التغيّر الذي سنراه، فأساليب التفكير العلمي – ولا ننسى أنه طبيب – ونمط الحياة، ومدى الحريّة الفردية، ما سيتسبب له بالأزمة

الرهيبة التي ستنفجّر بينه وبين بيئته مباشرة –كما سنرى – مع أول لحظة لالتقائه بها.

عاد إسماعيل إلى مصر، إلى القاهرة، إلى بيته في السيدة زينب حيث والده ووالدته، وفاطمة النبوية، فهاله ما يرى من فقر، هو الغائب في أوربة والذي قضى سبعة أعوام (سمان) أنسته واقع الحال، سبع سنوات مكتنزات بالعلم والمعرفة، والمتعة، وراحة البال، وتلقن عادات وثقافة مجتمع آخر قطع شوطاً بعيداً على درب الحضارة والعلم، مجتمع مختلف تماماً، يمنح الفرد حريّته، ويصون حقوقه، ويجعل من العلم دينه الجديد.

لم نر إسماعيل وهو في لندن، رأينا لندن فيه بعد عودته، لأن الكاتب أراد أن يضع (إسماعيل) العربي المسلم، ابن السيدة زينب، بعد غيبة سبعة أعوام، وجهاً لوجه مع مجتمعه كما هو، ولكن كيف؟

ابنة العم المنتظرة، الخطيبة التي عقد له الأب عليها قبل سفره لتكون زوجته عند عودته، هاله ليلة وصوله رؤيته لأمه وهي تقطر في عينيها زيت قنديل أم هاشم، هو طبيب العيون المتفوّق القادم من لندن، الذي يؤمن بما يقدمه العلم، لا الهبل والسذاجة والجهالة. يخطف الزجاجة من يد أمه ويلقي بها بعيداً وهو في ثورة كاسحة تدفعه للخروج إلى مقام السيدة القريب من البيت، ليقتحم المقام، ويمسك بالزيت المبارك فيرميه، وإلى الشموع المنذورة فيطفئها، صارخاً بكلمة واحدة لم يكملها: أنا.. أنا.. أنا... أنا ماذا؟ لم يقل هو ماذا، فقد أرتج عليه.

طبعاً يهجم الناس عليه ويطرحونه أرضاً، ولولا اندفاع الشيخ (الدرديري) خادم المقام الذي يتعرف عليه – وقد كان يعرفه منذ أقام وأسرته في حمى (أم هاشم) – وينقذه من بين أيدي العامَّة قبل أن يهلكوه دوساً بالأقدام.

يُصدم والده ووالدته من سلوكه ويتمنون لو أنه لم يعد، أو لم يسافر لطلب هكذا علم أفقده دينه وعقله، وتلوذ الخطيبة فاطمة بحزنها هي المتعلّقة به، ويبدأ في معالجتها بالأدوية والقطرات والأساليب التي تعلمها وأبدع في تطبيقها هناك في لندن، ولكن حالة فاطمة تتفاقم وهو ما يدفعه لليأس ومغادرة البيت والإقامة في (بنسيون) قريب تملكه سيدة يونانية جشعة تستل من إسماعيل كل قرش ممكن سرقته – ليست صدفة المرور بهذه الشخصية، لأن الروائي ينبهنا إلى أنه ليس كل أوربي إنسان متحضر، نظيف النفس، حسن السلوك، فالإنسان هو الإنسان، والناس معادن – يعتزل فيه وهو على حافة الجنون.

لقد تعلّم في لندن كيف يعالج العيون المريضة بالأدوية الحديثة، وعرض ما فعل لفاطمة على زملائه الأطباء المصريين فأيدوا طريقته في العلاج، وأوصوه أن يواصل، ولكنه فشل فعينا فاطمة يكاد نورهما أن ينطفئ.

البنسيون قريب من ساحة أم هاشم، وهو يدور يومياً حول المقام، وفي ليلة (القدر) وكل شيء مشعشع بالأنوار، تطمئن نفس إسماعيل فيدخل المقام ويلتقي بالشيخ الدرديري، ويطلب منه زيتاً مباركاً.

يستقبله الشيخ (الدرديري) ببشاشة وترحاب:

- والله أنت بختك كويس.. دي ليلة القدر، وليلة الحضرة كمان.

ويخرج إسماعيل وبيده الزجاجة وهو يقول في نفسه للميدان وأهله:

- تعالوا جميعاً إلي! فيكم من آذاني، ومن كذب علي، ومن غشّني، ولكني رغم هذا لا يزال في قلبي مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم، فأنتم منّي وأنا منكم. أنا ابن هذا الحي، أنا ابن هذا الميدان. لقد جار عليكم الزمان، وكلّما جار واستبدّ، كان إعزازي لكم أقوى وأشد. (ص55)

يأخذ الزيت ويتوجه إلى بيت العائلة، ينادي على فاطمة:

- تعالي يا فاطمة! لا تيأسي من الشفاء. لقد جئتك ببركة أم هاشم، ستجلي عنك الداء، وتزيح الأذى، وتردّ إليك بصرك فإذا هو حديد.

ويشد ضفيرهّا وهو يقول لها :

- وفوق ذلك سأعلّمك كيف تأكلين وتشربين، وكيف تجلسين وتلبسين، سأجعلك من بني آدم. (ص 56)

يبدأ الدكتور إسماعيل ابن حارة السيدة زينب (أم هاشم) رحلة علاج فاطمة التي تحبّه وتثق به، والتي انتظرته. عاد من جديد إلى علمه وطبّه يسنده بالإيمان.

عالج فاطمة بالزيت المبارك وبالأدوية الحديثة معاً، فشفيت، وتزوج منها، وأنجب.

افتتح عيادة في حارة (البغّالة) الشعبية، وأخذ يعالج فيها الفقراء بقرش واحد بالأدوية الحديثة وزيت أم هاشم.

الدكتور إسماعيل فهم السر، فمناطحة المعتقدات، ومحاولة تغيير المجتمع بضربة ساحر، تؤدي إلى الفشل، إلى الانفصام والانفصال والفراق بين المتعلّم المستنير ومجتمعه.

بالعلم والإيمان، بالفهم والحب، بالتواضع والصبر وطول النفس يمكن أن يؤدي (المتعلم المثقف) دوره في إعادة البصر لمرضاه ليروا، لبصيرتهم لتتقد، ليصيروا من بعد (من بني آدم) .

مثقفون كثيرون سقطوا في الامتحان، عادوا متفوقين من (الغرب) ولكنهم اندفعوا دون ترو في الاصطدام مع ما يرونه جهلاً وتخلّفاً، وإلى الغرب عادوا، وهناك اندمجوا وانتهى أمرهم!

في بلادنا أحزاب فشلت بعد أن فقدت دورها نتيجة لجهلها بالواقع، ونهجها أساليب قطعت العلاقة بينها وبين (الجماهير)، واندثرت ولم يتعلم غيرها من درس فشلها.

ثمّة قوى حزبية اصطدمت أول ما اصطدمت بالدين، فأضاعت أي إمكانية للتواصل مع الناس، لأنها اعتدت على مقدسهم، ولذا تاهت الشعارات على أهميتها، وتبددت الطاقات في جدل فارغ ومناطحة بدلاً

من تقديم النموذج الذي بخطاه الواعية العارفة يرسم ملامح الطريق، ويجعل الناس الجهلة (من بني آدم)، يخلّصهم من جهلهم بحكمة وصبر وأناة ودون تحقير.

إسماعيل في ختام (أم هاشم) هو المثقف المتصالح وليس المناطح، وهو بالتأكيد ليس المهادن، ولكنه صاحب الرسالة الذي لا يبحث عن المال، ولذا فهو يعالج ويعيش في حي فقير متواضع، ويقبل بالقروش القليلة، ويسعد بشفاء زواره الذين بلغتهم شهرته وصيته، فصاروا يفدون إليه من خارج القاهرة.

الراوي، ابن شقيق الدكتور إسماعيل، ينهي الرواية بنبأ موت إسماعيل الذي تكرّش وما عاد يأبه بلباسه، والذي كان يشفي الفقراء، وما عليه من مأخذ، اللهم سوى غمز ودود ممن يترحمون عليه بتسامح – لحبّه للنساء – يرحمه الله.

هذه الرواية القصيرة، المتقنة، التي كتبت بدون زوائد، بلغة مقتصدة فصيحة سلسبيل، بقليل من المفردات الشعبية التي يتقنها يحيى حقي، تضع المثقف أمام الخيار: يا إسماعيل أمامك أن تقفل عائداً إلى الغرب وتعيش (حياتك) الشخصية، وتحقق خلاصك الفردي هناك.. أو أن تتعامل مع مجتمعك بمعرفتك وعلمك، ودون أن تصطدم بمعتقدات الناس وتحقّرها، بل تحوّلها إلى عامل مساعد في شفائهم بحيث ترى عيونهم وتبصر، أي تختار لنفسك أن تكون صاحب رسالة و(دور).

(أم هاشم) برأيي ليست عن صراع الشرق والغرب، ولكنها رواية المثقف المتعلّم في لحظة الاختيار، ولهذا قفز يحيى حقي عن تصوير الحياة في لندن، وجعل بعض جوانبها عناصر مؤججة للصراع الداخلي في نفس إسماعيل.

إسماعيل مرّ في (التجربة) ونجا منها. كاد يفقد حياته، وأوشك أن يفقد عقله، وانعزل، وتأسف الذين ضحّوا وأكلوا الفجل والخبز الحاف ليعود من غربته بعلم ينفعهم.

في (قنديل أم هاشم) وفي (البوسطجي) لم يبتعد يحيى حقي كثيراً عن فن القصة القصيرة، فهو يعرف إلى أين يذهب، موظّفاً كل كلمة، ولفتة، وشخصية مهما ضؤل دورها، ليصل إلى هدفه الذي ينطوي عليه عمله الأدبي الرفيع القيمة.

وهو كاتب لا يغيب عن باله أنه يكتب أدباً، وأنه قاص وحكّاء، وأن ما يكتبه يجب أن يمتع، وأن يكون عميقاً وإن بدا سهلاً قريباً.

وفي رأيي أن يحيى حقي (ولد عام **1905**، وتوفي عام **1992**) واحد من أكبر الكتّاب العرب الجديرين بالحفاوة عربياً، لا إقليمياً مصريّاً.

---

* صدرت (قنديل أم هاشم) في عدّة طبعات، وقد عدت وقرأتها في طبعة تضمها مع عدّة قصص قصيرة أصدرتها (دار المعارف) في القاهرة عام **1989**.

وميض البرق.. رواية الإنسان الوحيد وأيامه الموحشة

إنها فن الإنسان الوحيد، أي كما فهمت الفن الذي يعبر عن الإنسان في أقصى وأقسى لحظات شعوره بأنه وحيد، لا أحد له، ولا أحد معه، ولا أحد قربه..

هذه هي رواية (وميض البرق) للروائي والقاص ياسين رفاعية، مكتوبة بضمير (الأنا)، ولذا فالأنا وحدها تستدعي الذكريات، والأشخاص، والأيام الخوالي الطافحة بالحب والألفة، والأسرة، والزوجة الحبيبة، والابن، والابنة، اللذين كبرا وتزوجا، ورحلا بعيداً.

ياسين رفاعية يكتب روايته الجديدة (على نفس) واحد، وكأنما جلس مع آلة تسجيل، وأباح لها بأسرار حياته، وخصوصياته، وهو بمكر الروائي، والقاص المخضرم، يستدرج القاريء ليتابع معه، بتشويق سلس، وباللعب على (تيمات) تتكرّر في الرواية، وشخصيات فاتنة، ومصائر مفجعة، وحاضر شديد القتامة!

ترى، أتكون حياة الناس هكذا عندما يكبرون؟! مجرد ذكريات، وصور، ومشاعر، وخيبات كثيرة؟! .

بطل الرواية، فقد الزوجة التي أحب، بعد أن أجريت لها عملية جراحية في القلب، أودت بها إلى شلل نصفي، ثمّ موت بطئ، ورحيل صاعق للزوج المحّب. وهو عاد ليعيش في بيروت حيث بيت البداية

والأمل، والزهور، والشرفة التي تطل على جيران يتبادل معهم التحيات، ثمّ يترؤي في بيته الفارغ الموحش.

من الشخصيات المدهشة، وقد برع الكاتب في تقديمها، وجعلها حيّةً تماماً، كشخصية الأب، الذي يحضر بقوّة في ذاكرة الإبن، أمّا الأم فقليلة الحضور، وهذا سببه أن الأب يعود إلينا من زمن (الرجولة)، والقيم التي يمكن تلخيصها بكلمتين: الحكمة والشهامة.

في الرواية شخصيات أليفة بالنسبة لي، فعبد الله– الصديق الحقيقي لياسين رفاعية – هو عبد الله الشيتي القاص والصحفي، ولقد قدّمه ياسين ببراعة، وبجوهره، لا بمظهره الخارجي الذي كان يميل للسخرية حتى على نفسه ليضحك الآخرين.

ومأساة سقوط طفل من الطابق العاشر، من بين يدي أمه، هي نفس مأساة حياة عبد الله الشيتي الذي فقد طفله الأول، الذي سقط من بين يدي أمه بينما كانت (تناغيه) وهي على شرفة البيت في دمشق، وهو ما أدى إلى انهيار الحياة الزوجية فيما بعد، والطلاق بين الزوجين.

ياسين رفاعية يستعيد تلك الحادثة المشئومة المروّعة، ويلعب عليها ببراعة، ويثير أسئلة، ويفصح عن ألم دفين، لا على الأبوين فحسب، ولكن على موت الطفولة التي لم تميّز بعد بين الموت والحياة.

لا يكتب ياسين رفاعية مذكرات، ولا يدوّن وقائع حياته الشخصية، ولكنه يمتح من تجربته الحياتية، ويوظّف المعاناة التي ألمّت بزوجته الشاعرة

الرقيقة أمل جرّاح، التي أجريت لها عدّة عمليات جراحية، والتي ما زلنا نتذكر قصائدها الرشيقة في ديوانها "صاح عندليب في غابة".

من يريد البحث عن تفاصيل حياة ياسين رفاعية الشخصية في هذه الرواية لن يجدها كما هي في واقع الحياة، وكما يعرفها أصدقاؤه الحميمون، ولكن الأمر سيشكل على بعض القرّاء بحيث يذهب بهم الظن إلى أن الكاتب يروي وقائع حياته بالضبط.

تنتهي رواية "وميض البرق" بما يشبه الرؤيا، فبطلها يتوهم أن زوجته قرعت الجرس، وأنها ظهرت أمامه، كما لو أنها لم تمت، وهنا تنتهي الرواية بهذه العبارة الموجزة، التي هي ذروة الألم في رواية كتبت عن الوحدة، والموت، والفراق، وانكسار الأحلام: استندت إلى الجدار وأنا أتهاوى.

رواية مشحونة بالألم، تقرأها على نفس واحد، ليس فيها حبكة، أو عقدة، ولكنها (سيولة) نفسية وتهويمات وهواجس وتداعيات وذكريات لرجل يعيش وحيداً، رجل يتهاوى على جدار لا يسنده، فجدار الإنسان هو الإنسان الحبيب والصديق والابن والابنة، والأحفاد، وهؤلاء اختطفهم الموت، أو توزّعوا في المنافي الاضطرارية بعيداً عن وطن لا يمنحهم سوى الفقر، والغربة، والموت اليومي، وتركوا من يحبهم ويحتاجهم للوحدة، والنسيان.

ياسين رفاعية، الذي عاد من لندن ليعيش في بيروت، تاركاً هناك زوجته الشاعرة أمل جرّاح لتواصل العلاج الذي يتوفّر لها، ومفارقاً الابن والابنة اللذين يعيشان زمنهما وحياتهما، والذي فقد أعز الأصدقاء.. يتغلّب على عذاباته، ومكابداته بالكتابة، وما يخيف أنه يكتب عن كثيرين تأكل (الوحدة) أيامهم، وما تبقّى من أعمارهم..

---

*وميض البرق، رواية لياسين رفاعية، صدرت عن دار الخيال في بيروت، عام **2003**

* رحم الله ياسين رفاعية، القاص، والروائي الكبير، فقد توفي في العام **2016** وحيدا في بيروت، بعد أن فقد زوجته الشاعرة أمل جرّاح وابنته الشابة لينا التي تركت خلفها ثلاثة أطفال.

قناديل إشبيلّة للعجيلي.. سحر وبلاغة القّص

قرأت له قبل أن ألتقيه في بيت شاعر فلسطين الكبير عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى)، وكانا صديقين حميمين.

أوّل رواية قرأتها له هي (باسمة بين الدموع)، بعد أن قرأت دراسةً عنها كتبها الناقد المصري غالي شكري، وكان ذلك قبل أزيد من أربعين سنة، وفي الذاكرة رسخت مشاهد من تلك الرواية، وأجوائها، وشخصيّاتها..

ثمّ تعرّفت على الدكتور عبد السلام العجيلي قاّصاً، وشغفت بقصصه القصيرة، واحترمته لوفائه لمنطقته وأهلها – منطقة الرقّة – وخدمته لهم كطبيب وكاتب مشهور، وشخصيّة اجتماعيّة ووطنية معروفة في سورية.

كان بإمكان الدكتور العجيلي الانتقال إلى المدينة والعيش فيها حياة رغد، وسعة عيش، ولكنه جسّد شخصيّة المثقف الأصيل بعلاقته بالناس البسطاء الفقراء، أغنياء النفوس والحياة، بتواضع أصيل، وبدون تنظير.

من يقرأ للعجيلي كتاب (عيادة في الريف) سيطّلع على طرافة حياته، وبساطتها، وجمالها ونبلها، في ريف مدينة (الرقّة)، وعلاقاته الإنسانيّة مع مرضاه الفقراء الذين كانوا يحضرون له (الجبن) و(الدجاج) و(البيض) كهدايا تقديراً لعلاجه لهم، هم الذين لا يملكون مالاً يقدمونه للطبيب، وثمناً للدواء.

منذ بداية علاقتي بالقصّة القصيرة كان العجيلي أحد الذين توقّفت عند قصصهم، ومازلت، واستمتعت بأجوائها الواقعية، وسردها اللطيف الحيوي، وقدرة القّاص على اجتذاب انتباه القارئ، وإمتاعه بسرد قصصي جميل وعميق..

أذكر أن صديقي الشاعر فوّاز عيد أحضر لي قصّة قصيرة للعجيلي مطبوعة في بضع صفحات، كانت مقرّرة في الجامعة على قسم الأدب العربي، وعنوانها (النهر سلطان)، وطلب منّي قراءتها، ثمّ لّما أعدتها له في اليوم التالي، أخذ يثني على بنائها وعمقها الإنساني، وهي قصّة تدور حول فيضان نهر الفرات في ثورة عارمة ياما اكتسحت البيوت، والناس، والحيوانات..

في تلك القصّة يلتفت الأب وراءه فلا يجد ابنه، لأن مياه النهر الهائج ابتلعته..

النهر السلطان – وهو في فيضانه سلطان غاشم، وإن جلب الخير مع مياهه، وأخصب السهول المجاورة بما يحمله من طمي – فرض قانونه الذي لا يُرد.

أود لفت الانتباه إلى إنني أكتب من الذاكرة بعد سنوات كثيرة مرّت على قراءتي لتلك القصّة، التي درّست في الجامعة كنموذج للقصّة القصيرة الرائعة، ليتعلّم الطلاّب فنون كتابة القصّة القصيرة، وهو ما

هدف إليه صديقي فوّاز عيد عندما أعارني إيّاها لأتعلّم منها شيئا من أسرار فّن القص.

في زيارتي لإسبانيا العام 2005، في شهر آذار، وأنا أقف على التلّة المقابلة لقصر الحمراء، متأمّلاً أصص الزهور على الشرفات البيوت الأليفة، والمشربيّات (الدمشقيّة)، كنت أستعيد في ذاكرتي أجواء قصّة عبد السلام العجيلي (قناديل إشبيليّة).

وعندما كنت أتجوّل مع صديقي الشاعر عز الدين المناصرة في شوارع (غرناطة) و(قرطبة)، كنت أتذكّر (قناديل إشبيليّة). وفي العشاء الذي ضمّنا مع شّاب فلسطيني وصديقته الإسبانيّة، استذكرت تلك القصّة، ورويتها لهم من الذاكرة.

تبدأ قصّة (قناديل إشبيلية) بأسلوب مثير، جذّاب:

قال البروفيسور آلسيدو – بهذا قدّمته إلي الراقصة الساحرة العينين – وهو يفرغ الكأس الأولى في جوفه:

– هل تحتقر ابن عمّك إذا كلّمك بغير لغته؟ لقد سمعتك تتكلّم الفرنسيّة بطلاقة، فاسمح لي أن أحادثك بها.

فأومأت برأسي موافقاً، وموطناً النفس على سماع حديث هذا الطفيلي إلى نهايته.. قال:

- رأيتك امتعضت من دعابة هياسنتا. إنها دعابة تجرح، ولكنّك لست المقصود بها يا ابن العم. كانت سهماً مسدداً إلي، لولا أن جلدي أصبح في غلظ جلد التمساح. ومع ذلك فإن لهياسنتا عينين تشفعان لها في كل ذنب تأتيه.

من هو آلسيدو هذا؟ ومن هي الراقصة؟ ومن هو الراوي الذي يقّص علينا حكاية آلسيدو، وحكايته هو؟

تسأل الراقصة (الراوي):

- من أين السيّد إذن؟

بعد أن ينفي أنه برتغالي، أو إيطالي، يجيبها:

- عربي .

- عربي من مراكش؟

- بل عربي من المشرق.

تلتفت إلى مائدة قريبة، كانت شبه مختفية وراء إحدى شجيرات الورد في حديقة الملهى، وتصيح:

- آلسيدو! هذا السيّد عربي جاء مثلك يبحث عن ملك أجداده..

يخبرنا الراوي:

وكانت هذه هي الدعابة التي امتعضت منها، والتي جاءت بالبروفيسور آلسيدو إلى مائدتي.

الشخوص، المكان، الحدث، يمزجها القّاص كلّها، ويقدّمها في الصفحتين الأوليين، فماذا يبقى ليمتع، ويشد؟

يبقى الكثير، فالقصّة، وحكمتها، وفلسفتها، وحبكتها، لا تكتمل إلا مع الخاتمة، ولا أقول النهاية، لأن النهاية في مثل هذه القصّة هي بداية بالنسبة للقارئ الذكي، الذي يبحث عن المتعة العقليّة، وليس التسلية وتزجية الوقت.

مكان القصّة مدينة إشبيلية، وتحديداً كازينو إشبيلية، حيث أراد الراوي قضاء بعض الوقت، فالتقى بهذا الشخص العربي، الذي نتعرّف به كلّما مضينا مع القصّة في التفاصيل.

يقّص علينا الراوي:

فتطّلعت إلى آلسيدو من جديد، أتفحّص وجهه وهيئته. يجوز أن يكون هذا الشّائب عربي الأصل، فما أكثر الملامح العربيّة في الأندلس. وكأنه قرأ أفكاري، إذ لم يلبث أن نطق لدهشتي باللغة العربيّة في لهجة مغربيّة قائلاً:

– هل كنت تظنني إسبانيّاً؟ معك الحق. من الذي ينتظر أن يرى عربيّاً في كاسينو إشبيليّة! أنا نفسي ما كنت أتصوّر هذا.

يسأل الراوي وقد انتشى، ووجد من يفضفض له:

_ ألا تريد أن أقّص عليك حكاية ملك أجدادي؟

قلت وعلى شفتي ابتسامة هازئة:

– قصّة ملك أجدادك؟

فخيّل إلي أن عينيه غامتا، وأن شيئاً من الكمد قد طغى على ألق نظرته، وحسبت أني جرحته بلهجتي الساخرة، حتى لوددت أن أعتذر إليه.

نحن إذن لسنا في حضرة شخص فضولي، أو نصّاب، فالحكاية فيها ما يجلب الحزن، والكمد، وكلّما تقدمنا اكتشفنا أنها حكاية جديّة إلى حّد السخرية المُرّة، والضحك المبلّل بالدموع.

يسأل:

– هل سمعت شيئاً عن مفاتيح العودة؟

قلت:

– أي شئ هي هذي المفاتيح؟

إنها المفاتيح التي حملها العرب الأندلسيون، عندما أجبروا على الرحيل عن بلاد ولدوا فيها، وأسسوا ممالك، وبنوا، وأشادوا.

يخبر آلسيدو الراوي عن تلك المفاتيح التي ما زال بعضها معلّقاً في مداخل بيوت المدينة المغربية (مكناس)، متشبثين بحلم وأمل العودة إلى وطن أسلافهم!.

آلسيدو هو السيّد (بوقلادة)، غامر بالمجيء إلى إشبيليّة، وإذ دخل إحدى حاراتها في ليلة مقمرة، مضى بين بيوت بمشربيّات، وأبواب كأنها تدعو المارَّة لعبورها.

القّاص كأنما يقّص علينا أجواء ألف ليلة وليلة، يسحرنا بلسان (آلسيدو) أو السيّد بوقلادة، العربي المغربي الموسر، الذي ضاع في إشبيليّة وهو يتوهّم بأنه التقى ببيت أسلافه، أولئك الذين ابتنوا بيتاً في مكناس شبيهاً ببيتهم الأندلسي الذي هيئ لـــ (بوقلادة) أنه وجده في إشبيليّة.

الوصف في قصّة (قناديل إشبيليّة) ليس وصفاً خارجيّاً، سواء وصف ملامح الشخصيّات، أو المكان، أو الأجواء، بل هو وصف يقحمك في علاقة تماهي مع كّل شئ حتى لتشعر بالرهبة من جمال، وسحر، وسطوة المكان، والروح التي تسري فيه.

في البيت الإشبيلي المسحور يلتقي (بوقلادة) بطيف امرأة تبدو كأنها بين الواقع والخيال، ولكنه يتيقن من واقعيتها بتردده على المكان، وهي لا تسمعه سوى كلمة واحدة، هي ذوب الروح، وضوء القمر، وحفيف الشجر: (مانيانا)، والكلمة إسبانيّة ومعناها (بكرة) أو غداً، وإن رأى ألسيدو أنها أجمل وأكثر إيحاء من كلمة غداً العربيّة.

اندمج الراوي مع حكاية (بوقلادة) العربي الذي وجد بيتاً هو شبيه البيت الذي تركه أسلافه قبل خمسمائة سنة، والذي احتفظوا بمفتاحه في صدر بيتهم المغربي، مغروسا في مسقط الضوء، رغم تناسي الأجيال المتعاقبة له، ولما يمثّل.

يستخدم العجيلي أسلوب القّص العربي في ألف ليلية وليلة، فيستولد الحكاية من الحكاية، ولعلّ هذا هو أحد أبرز منجزات العجيلي القصصيّة

(لم أستطع أن أنام ليلتي تلك. إن الرغبة التي أخرجتني من بلدي وبلغت بي الأندلس كانت رغبةً مقنّعة بألف قناع سقطت كلّها حين وجدت نفسي في القاعة المثمنة. لم يكن صحيحاً أني كنت شابًّا وارثاً أراد أن يسري عن نفسه في اللهو ومتع السياحة).

(أم كان كلُّ الذي رأيته وهماً ترسَّخ إلى ذهني ممّا قرأته في ألف ليلة وليلة، من حكايات إذا طلع عليها الصباح تلاشت أطيافها في ضوء النهار الساطع) .

هذا جزء من بوح آلسيدو (السيّد بوقلادة) العربي المغربي الذي انتهى به الحال خادماً لراقصة إسبانيّة، يحمل ملابسها، ويرافقها تابعا ذليلا بعد أن خسر ماله، واتزانه العقلي، وما عاد قادراً على العودة إلى مكناس، فلا هو احتفظ ببيته المعاصر هناك، ولا نجح في استعادة بيت أسلافه الخاسرين.

لا تنتهي القصّة هنا، فالراوي القادم من الشرق العربي البعيد، خاض نفس المغامرة الليلية، وهيئ له أنه التقى بتلك المرأة الليلية – القمريّة، وأنها همست له بنفس كلمة السحر: مانيانا (غداً)، ولكنه يعترف راوياً بدوره ما جرى له: وفي جهد اليائس انتزعت قدميّ من موقفهما وانفلت مسرعاً في رواق المدخل إلى باب الزقاق المقفر. وهناك ملأت صدري من الهواء وزفرت زفرة فرّجت عنّي، ثمّ انطلقت مسرعاً، كأني أعدو إلى المدينة وأنا أحّس أن قناديل إشبيلية لا تزال تلقي عليّ شباك أنوارها، وتطاردني بأشعتها لتجذبني،كما جذبت قبلي البروفيسور ألسيدو، أو السيّد بوقلادة، إلى هاوية عالمها المسحور..

لقد أفلت الراوي، العربي القادم من الشرق، من سحر قناديل إشبيليّة، ومن مصيدة الماضي، وزفر زفرة غير زفرة العربي الأخيرة، زفرة ليست زفرة تحسّر، ولكنها زفرة النجاة من شرك الماضي، ووطء الحنين المدمّر الذي لا يعيد السيادة لحفيد المهزومين، بل يحيله عبداً ذليلاً، ومسخرةً.

كأنما قناديل إشبيليّة هي لعنة الفراعنة، هي لعنة الحلم والحنين والغرق في ماض ولّى ولن يعود.

قصّة مكتوبة بروح عربيّة، بفّن قص عربي، بحكمة شرقيّة عميقة، بشعر وسحر، بلغة تأخذك إلى عالم قصصي يبنيه القاص كلمة كلمة بسلاسة، فيستدرجك إلى عالم قناديل إشبيليّة، محيّياً ذلك الزمان، زمان الوصل بالأندلس، الذي مضى ولن يعود.

تنويه: في عمّان العاصمة الأردنيّة، التقيت في فندق القدس بالسيدة شهلا العجيلي، الكاتبة، قريبة الكاتب الكبير عبد السلام العجيلي، وإذ عرفّتني بنفسها رويت لها حكايةً بسيطة وقعت لي مع الأستاذ العجيلي.

كنت قرأت له رواية (قلوب على الأسلاك)، وساءني أن في الرواية نقداً اعتبرته غير منصف لتجربة الوحدة بين مصر وسوريّة، وللرئيس جمال عبد الناصر، فكان أن كتبت مقالة عن الرواية، ومّما أوردته: إن من مآثر مرحلة الوحدة، وجمال عبد الناصر، استصلاح مناطق (الغاب) في شمال سوريّة..

التقيت بالأستاذ العجيلي في مقّر مجلة (المعرفة) السورية بدمشق، عند الأستاذ خلدون الشمعة، وهنا أحرجت عندما امتدح بعض أعمالي الروائيّة، ثمّ نبّهني بلطف أن سهل الغاب لا يقع في شمال سوريّة، وحدد لي المكان بالضبط، وهو يبتسم!

شعرت بالحرج الشديد، والارتباك...

لقد تعلّمت منه درساً كبيراً، وهو أن أتيَّقن عندما أكتب، وأن أكون دقيقاً في تقديم المعلومة.

رويت للسيدة العجيلي الحادثة، وأبديت احترامي لهذا الكاتب الكبير، الذي ربّما أخذت عليه مشاركته في وزارة (الانفصال) هو الأكبر من كّل الوزارات، والذي احترمته دائماً ككاتب كبير.

قرأت ما كتبته السيّدة العجيلي في (القدس العربي) ، ونقلها ما رويته لها للأستاذ العجيلي، وأنني سمعت عن صدور مذكرّاته عن فترة مشاركته في حرب فلسطين عام 48، وما رواه عن جيش الإنقاذ..

سرّني جدّاً أنه كتب لي إهداء على كتابه ذاك، وأن ذلك الإهداء ربّما يكون من آخر ما خطّ قلمه – كما كتبت السيدة شهلا – ولقد أسعدني أن الأستاذ العجيلي ضحك كثيراً عندما سمع الحكاية.

كلمتي هذه هي تحيّة متواضعة لهذا الكاتب الكبير، الذي قاتل على ثرى فلسطيني، طبيبا يداوي الجرحى في أرض المعركة، ويشدّ أزر المدافعين عن عروبة فلسطين..

في آخر حوار معه نشرته (الجيل) في عدد أيّار 2006 يصف الدكتور العجيلي نفسه، بعد 43 كتابا بأنه كاتب هاو، يكتب بعد أن يفرغ من عمله اليومي كطبيب.

تسأله محاورته أمينة عبّاس:

– هل أنت راض عن حياتك؟

يجيب:

– أنا راض بالواقع، وعملت قدر الإمكان لأكون ذا فائدة، وحتى لا أمر مرور الكرام في هذه الحياة، وأعتقد أن حياتي كانت غنيّة بما فيه الكفاية، ولا أندم، ولا آسف على شيء اليوم.

الذي يجمعنا اليوم، الذي أمتعنا بحكاياته هو الحكّاء البارع، الكاتب الكبير عبد السلام العجيلي، لم يمر في الحياة مرورا عابرا، وهو كريم الحضور، وها نحن من بلاد العرب القريبة، والنائية، نلتقي سنويا.. في ضيافته، وفي نفوسنا صدى حكاياته الغنيّة حكمةً، الممتعة قصّا..

أرجو أن تكون كلمتي اليوم دعوة للتعرّف على فنّه القصصي (العربي) الأصيل، يرحمه الله.

---

*هذه القصّة هي القصّة الأولى في المجموعة التي تحمل نفس العنوان (قناديل إشبيليّة) .

* نشرت في (القدس العربي)، **15** حزيران **2006** وأعدت النظر فيها في تشرين أوّل عام **2007**

الربيعي.. كاتب أصيل متجدد منتم!

عبد الرحمن مجيد الربيعي، هذا هو اسمه الذي عرفناه به، عندما قرأنا قصصه القصيرة الأولى على صفحات مجلة (الآداب)، ورواياته الأولى التي نشرت في بيروت، والذي نشأت بيني وبينه صداقة وطيدة تعود إلى بداية السبعينات، عندما التقينا للمرة الأولى في دمشق، وكنّا نشارك في مؤتمر الكتّاب العرب، هو في الوفد العراقي، وأنا في الوفد الفلسطيني.

يعد غائب طعمه فرمان الروائي والقاص العراقي الكبير، صاحب النخلة والجيران، وخمسة أصوات، برز عبد الرحمن، الذي يوقّع أحيانا باسمه الأول واسم العائلة، والذي كما عرفت منه فيما بعد أنه كان يكرّم والده (مجيد) إذ يضع اسمه على غلاف رواياته، وقصصه المنشورة، وهو ما فعلته شخصياً عند نشري لروايتي الأولى (أيام الحب والموت) في طبعتها الأولى عن دار العودة، ولم أكرر الأمر لأنه خلق لي إشكالاً فقد ظنّ بعض القرّاء أن وضع الاسم ثلاثياً إنما هو للتمييز بين كاتبين من نفس العائلة!.

عبد الرحمن الربيعي أصدرت له المؤسسة العربية المجلد الأول من أعماله القصصية، ويضم ست مجموعات قصصية تحوي قصص البدايات كما يصفها عبد الرحمن في مقدمته للمجلد مؤملاً أن تحظى بالوّد الذي حظيت به عند صدورها للمرّة الأولى، واستقبلها القرّاء جيداً.

من البداية لفت الربيعي انتباه كبار النقّاد والكتّاب العرب، ناهيك عن القرّاء داخل العراق وخارجه في الوطن العربي الكبير.

غسان كنفاني كان من أبرز الذين كتبوا عن مجموعة (السيف والسفينة) وهي المجموعة الأولى لعبد الرحمن، وعلى صفحات (الأنوار) اللبنانية، محتفياً، ومنبهاً لهذا القاص الشاب – آنذاك – القادم من العراق: عالم الربيعي.. عالم رجل ثمل، نصف نائم، مسحوق بين شيفرة الواقع وشيفرة الوهم، وكلاهما بالنسبة له جحيم لا يطاق.

قارئ المجلد الأول لأعمال الربيعي القصصية، سينتقل من مجموعة قصصية إلى التي تليها زمنياً، متابعاً لتطوّر أدوات القاص المشغول بفنّه، المتوغل في بيئته، بيئة الجنوب العراقي، عبد الرحمن من الناصرية، ينتمي لواحدة من أعرق العشائر العراقية والعربية هي آل ربيعة، والتي أنجبت عدداً من المبدعين المرموقين في زمننا: قصاصين، شعراء، باحثين، وهو اقترب من معاناة الناس في (الأهوار) حيث الحياة البدائية وكتب عن ناسها قصّة لا تنسى بعنوان (سر الماء).

كما بعض أبناء جيله لجأ عبد الرحمن إلى التقطيع، والمونتاج، في قصصه، متخففاً من ثقل السرد، ومتأملاً الحكاية والأشخاص من زوايا متعددة، مشركاً القارئ في (تجميع) أجزاء القصّة حكاية، وبشراً.

وتقديراً من شاعر وباحث فذ هو خزعل الماجدي للربيعي وعطائه نقرأ على الغلاف الأخير للمجلد الصادر حديثاً: يسطع اسم القاص والروائي

العراقي الكبير عبد الرحمن مجيد الربيعي بقوّة في خارطة الأدب العراقي، ومن منّا ينسى دوره في العقود السابقة عندما نقل القصّة والرواية الستينية إلى الجامعات العربية والعالمية؟

أمّا الدكتور عبد الرضا علي فينصف الربيعي ويحفظ له دوره وهو يكتب: الربيعي أول صوت تجريبي في تحديث القصّة العراقية القصيرة.

أمّا صديقه القاص والروائي العراقي – وهو من الجيل التالي لعبد الرحمن – عبد الستّار ناصر فيصف عبد الرحمن بأنه مجنون قصّة قصيرة لا فرق بينه وبين قيس بن الملوّح!

عنده حق عبد الستار ناصر أن يصفه بأنه مجنون قصّة قصيرة، فبحسب معرفتي عن كثب بعبد الرحمن فهو مخلص حتى الوله لهذا الفن العصّي.. القصّة القصيرة، وإن كان هذا لا يقلل من أنه متيّم بالرواية، ويخونهما مع قصيدة النثر، التي يا طالما زجرته لأبعده عنها.. ولكنه لم ينته!..وما وجه الغرابة؟.. أليست القصة القصيرة والقصيدة قريبتين، متشابهتين، متداخلتين شكلاً، وفنّاً، مع احتفاظ كل منهما بخصوصيتها؟!

يستقر عبد الرحمن في تونس منذ سنوات، وهو غادر بلده العراق ولم يدع أنه اضطهد، أو لوحق، أو أنه (هارب) من نظام الحكم هناك، مع أنه معارض حقيقي ورافض لممارسات انتهكت حقوق الإنسان، ولتجاوزات، وفساد، وتخريب أجهزة ...

في تونس أقام عبد الرحمن مع (الفلسطينيين)، ووجد في القضية الفلسطينية قضية له، وكان على صلة من قبل بأصدقاء كثيرين أنا واحد منهم، ولذا لم يشعر بالغربة في تونس لترحيب الفلسطينيين والتوانسة به.

لم يطلب اللجوء السياسي من دولة أوروبية، ولا باع صوته للعدوانية الأمريكية على بلده في سنوات الحصار، ووظف طاقاته لخدمة كتّاب وشعراء ومبدعي بلده العراق، فكان نافذهم على القارئ العربي، وأرهق دخله بالرسائل والطوابع، والمكاتبات، والمراسلات، والاستضافة لكل عراقي بغض النظر عن انتمائه السياسي..

ووفاءً لتونس والتوانسة فقد عمل على نشر الأدب التونسي، والترويج له في المشرق العربي، وهو بهذا جسّد الدور اللائق بالكاتب المسكون بروح العطاء والانتماء لأمة عربية، وثقافة عربية واحدة.

من يتابع كتابات عبد الرحمن على صفحات (القدس العربي)، وبخاصة بعد الحرب العدوانية الأمريكية البريطانية الصهيونية، والتي سهّلت له دويلات عربية صغرى، ودول عربية (كبرى) بائسة القيادة، يزداد احترامه لهذا القاص والروائي والمبدع الشريف، الذي يرفع صوته بقوّة مع المقاومة العراقية، رافضاً احتلال وطنه، وطن حمورابي صاحب القوانين الإنسانية العريقة، لا وطن بوش وبلير ورامسفيلد وبقية الغزاة القتلة.

لم يقع عبد الرحمن في براثن (الطائفية) هو – وليسمح لي بأن أطلع القارئ على هذا الأمر – المسلم (الشيعي)، فالولاء عنده للعراق العربي، وللأمة العربية، ولعروبة فلسطين، ولحرية وكرامة الإنسان العربي..

أن يصدر المجلّد الأول من الأعمال القصصية لعبد الرحمن الربيعي الذي يكتب منذ أربعة عقود، مخلصاً لفنه، ولقضايا الإنسان العربي، محبّاً للعراق العريق، فهذا فعل مقاوم، فعل ثقافي لكاتب يرفع صوته حاضاً على المقاومة، لا يوهن بعد المسافة عن (عراقه) من عزيمته، ولا يخفض من صوته أو يقلل من حماسته.

* صدر مجلد الأعمال القصصية لعبد الرحمن الربيعي عن منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت، ويضم ست مجموعات قصصية هي المجموعات الأولى للكاتب، وهي: السيف والسفينة، الظل في الرأس، وجوه من رحلة التعب، المواسم الأخرى، عيون في الحلم، ذاكرة المدينة.

"طنين" ما لم يروه التاريخ

رواية (طنين) للكاتب السعودي سيف بن سعود بن عبد العزيز آل سعود، صدرت عام 2006 في بيروت، عن منشورات دار الفارابي، ولكنني فرغت من قراءتها بعد صدروها بثمانية أعوام.

بين التاريخ والرواية ثمة تقارب، وتباعد كبير أيضا، لأن التاريخ يروي وقائع من وجهة نظر كاتبيه، وغالبا المنتصرين، أو المنحازين، أمّا الرواية فتقول غالبا ما لا يقوله التاريخ، لأنها معنية بالبشر، وبمشاعرهم وأحزانهم.. تلك التي لا يتوقف التاريخ والمؤرخون عندها.

تقدم الرواية، أحيانا معرفة، وهي لا تُكتب من فراغ، ولكنها لا تتقيد (برواية) التاريخ حرفيا، وإن كانت تتقاطع معه في بعض الوقائع التي تُبنى عليها الراوية، دون أن تتقيد بها حرفيا.

الروائي سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز، صاحب رواية "طنين"، عارف بموضوعه، فهو جزء منه، وامتداد له، ولعل والده كان صاحب دور بارز وتراجيدي في سياقه.

نشأة المملكة، وأفولها في دورها الأول، والثاني من بعد، هو موضوع الرواية، وعاصمة المملكة الأولى (الدرعية)، والرياض من بعد، وشبه

جزيرة العرب بشكل أوسع هي فضاء الرواية، وعلى رمال الصحراء التي تأخذ شكل المسرح (التاريخي) تدور الأحداث المأساوية.

لجأ الروائي إلى أسلوب الرسائل، وهو أسلوب معروف روائيا، ومن أبرز من استخدموه الروائي الروسي العظيم (دوستويفسكي)، وهو بذلك تخفف من السرد الثقيل الممل، سيما والمسافة الزمنية للأحداث ممتدة.

رسائل خالد بن سعود الشخصية الرئيسة في الرواية موجهة إلى صديقه حمد بن محيمل (أبو راشد)، وبالرسائل – وهذه حيلة فنية بارعة – نتعرّف على شخصية كاتبها خالد بن سعود، وعلى ما لم يذكره التاريخ، وخالد هو أحد أبرز ضحاياه في دوري الدولة السعودية الأول والثاني، والشخصية الحائرة الناقدة الحكيمة المتعظة من وقائع التاريخ والأحداث، والتراجيدية، والمساقة اضطرارا للانخراط في تحمل مسئولية الحكم، والراغب أيضا في الحكم.

في الرواية زمنان، زمن قراءة رسائل خالد بن سعود من قبل رئيس الدرك موسى عبده، ونائبه أبو الفرج أديب، وهما مكلفان من الوالي العثماني على الحجاز كوتاهية علي باشا، الذي لن يغفر لهما أي هفوة.. في يوم موته ودفنه وموته، والزمن التاريخي للعائلة التي حكمت في دورين، أو دولتين، في القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر.

هذه الرواية تعرفنا أكثر من كتب التاريخ على نشوء الحركة الوهابية، وتأسيس الدولة السعودية، والصراعات التي احتدمت على رمال شبه

جزيرة العرب، لأنها تقدم لنا شخوصا من لحم ودم ومشاعر وآلام، ورغبات، وشهوة للحكم، وجشع لما في أيدي الآخرين بحجة (الدين) والعودة للأصول، وهو ما يكشف لنا عن الوجه الحقيقي الخفي للتزمت، والتشدد، وتكفير كل من يعارض، أو يختلف.

خالد بن سعود الذي اقتيد مع والدته وزوجته إلى مصر، بعد أن بطش إبراهيم باشا بالدولة السعودية الأولى، تتم إعادته بعد ثمانية عشر عاما إلى شبه الجزيرة ليكون واليا بدعم من محمد علي باشا والي مصر، ويصدم بطموحات ابن عمه الذي كان قد فر من مصر، والذي شرع في إعادة بناء الدولة في دورها الثاني، وهنا يتفجّر الصراع عائليا، وهو ما يبرهن على أن الأمور لا تعدو أن تكون طموحات سياسية، بعيدة عن الدين، وأن التعصب يوظّف لبلوغ السلطة، وأن ما تم بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والأمير محمد بن سعود لم يكن ضامنا حاسما للحكم، والقبول بين الأقارب الذين تسلموا زمام أمور الحكم.. فرغبات البشر، وأطماعهم لا تتساوق غالبا مع تعليم الدين، والأخلاق الحميدة، وأصول أعراف العلاقات العائلية وتراتبيتها.

ثقافة خالد بن سعود الذي تفرّغ للقراءة والاطلاع في القاهرة، وهو يعيش تحت عيني وبصر حاكم مصر محمد علي باشا، ميّزته عن الآخرين، فقد تفتح عقله، ورأى إلى البعيد، مستشرفا ما سيأتي، هو الذي عانى من النكبة الأولى التي دمرت المملكة، ومن المأساة الثانية التي تجسدت صراعا

بين (الأهل) على الحكم، وانتهت به الصراعات سجينا في مكة، بعد أن خسر زوجته التي تركته، وفقد الحكم، ليموت وحيدا منسيا.

رسائل خالد بن سعود يحتجزها رجل الشرطة المكلف بمراقبته، وبعد موته وهو منفي في مكة، يقرر الرجلان: رئيس الشرطة ونائبه، إرسال الرسائل الخاصة إلى أصحابها، وإرسال الرسائل الهامة إلى (مولانا) ...

رسائل خالد بن سعود موجهة للحاضر، والروائي ارتدى قناع أحد أسلافه، لينصح بلسانه من يحكمون في هذه الأيام، في الدولة السعودية الثالثة، وهذا ما يتجلّى في الرسالة الأخيرة، التي على أهميتها، والبصيرة الرائية التي تحملها كلماتها، فإنها رسالة الروائي نفسه مباشرة إلى (من يهمهم الأمر)، ويرعوون من حكمة التاريخ، وتصاريف الدهر!

في الرسالة الأخيرة يتخيّل خالد بن سعود أن شبه جزيرة العرب قد تتفجر فيها ثروة تجتذب الطامعين الأقوياء الذين سيخربون ويدمرون كل شيء، وهو هنا كأنما يرى تفجّر ثروة النفط، وما تجره من بلاء إذا لم تكن ملك أصحابها وفي خدمة ناسها، ولا ترهن أهل شبه الجزيرة للطامعين!

هذا صوت الروائي، وهذه نصيحته، ولكن هيهات أن يُسمع صوت (المثقف) و(المبدع)..صوت خالد بن سعود، أو الروائي سيف الإسلام بن سعود!

هذه الرواية الصادرة في بيروت، عن دار نشر يسارية، هي دار(الفارابي) عام 2006، تحمل رسالة ضمنية لكل متطرف، ونحن نعيش

حاليا أوج زمن التطرف، بأن تطرفه لا مستقبل له، وأن تطرفه يغطي خواءه الفكري، وانه نهّاب لما في أيدي الآخرين بحجة أنه الحريص على الدين، في حين إنه بقتله كل من يخالفه، وهو يفعل كل ما هو نقيض للدين، فأي دين هذا الذي يبيح قتل من يخالفك الرأي، والاجتهاد، والتفسير؟! أي دين يبيح لك قتل من يعتنق نفس الدين، ومن يعتنق دينا سماويا آخر، أو غير سماوي؟!

قرأت هذه الرواية متأخرا، ونصحت كثيرين بقراءتها، خاصة من يعنيهم التعرّف على (الوهابية) من مصدر يعرفها، ويروي سيرتها من الداخل، ببداياتها، ومأساوية فصولها سياسيا.

قراءة هذه الرواية، ربما تعيننا على فهم خلفية ظهور أشكال من التطرف لم يسبق أن سمعنا بها، وآخرها (داعش) التي تقتل، وتسبي، وتذبح، وتدمّر!

لم أقرأ رواية سيف الإسلام بن سعود بن عبد العزيز آل سعود – والده ملك، وجده مؤسس الدولة السعودية الثالثة– الأولى، ولكنني من قراءتي لهذه الرواية التي استمتعت بها، وقدمت لي معرفة، أرى أن صاحبها روائي عارف بفن الكتابة الروائية، وأنه بعمله هذا اقتحم موضوعا صعبا ومعقدا، وعالجه ببراعة وجسارة وصدق.

- كاتب الرواية هو ابن ملك، وحفيد مؤسس المملكة السعودية.
- الرواية صدرت عن منشورات الفارابي ، بيروت.

> المنتهى الأخير هي الرواية الأولى للصحفي والقاص والباحث المصري "خالد محمد غازي". تبدأ بجملة تعيدنا إلى أجواء (ألف ليلة وليلة)، وأسلوب القّص الشهرزادي المغوي: بلغني أيها الملك السعيد، أنك ستداري قصّتي معك، كما يداري أمير عشقه لبائعة الورد، سترمي أوراقي في درج مجهول، قائلاً إنها ليست لك..

من هي هذه التي تخاطب الملك السعيد، ومن هو الملك السعيد؟ إنها ليست شهرزاد، كما إنه ليس شهريار، ولكنهما بشر يحيون في زمننا، ويقصّون حكايتهم بتقاطعات سرديّة، تكشف الستار عمّا خفي من الغدر، والخيانة، والتنكّر للحّب والثقة، ولعلاقات حميمة كانت ذات زمن.

بعد المدخل الشعري الشهرزادي الافتتاحي الاستدراجي، ينتقل بنا الروائي إلى مقطع يسرد شيئا من الواقع، فالتي تخاطب الحبيب، الملك السعيد، هي فتاة، وهو فتى، وبينهما بدأت علاقة حبٍّ ذات يوم، عاشاها معا ذات زمن، وافترقا لأنها باتت عبئا على حبيب خذلها، وانتهى أمره مراوغا: أتعبني الرجوع إلى قطار عمري.. ثمّ: لمّا التقينا جعلتني أتذكّر أن لقاءنا الأول كان منذ عشرين عاما.

أتذكرين ذلك الولد المشاغب.. والبنت ذات الضفائر.. هو أنا، وهي أنت..

في المقطع الثالث، والرواية مكتوبة بطريقة المقاطع السريعة، فيها تمويمات شعريّة، وصوفيّة، والمرتكز الرئيسي فيها حكايات الجّد المصري المتصوّف صاحب الكرامات الذي يزور فلسطين، ويبقى للأحفاد ذكره العطر، وهو هنا الجّد الرائي الذي يضع فلسطين نصب عينيه، فكأنما يوصي الأحفاد بالتنبّه إلى ما يتهدد فلسطين، وأن يحملوا همّها لأن مصيرهم يتعلّق بفلسطين التي كانت دائما بوّابة مصر.

في الرواية وقائع من حرب **1948**، وسرد لملحمة بلدة (سلمة) الفلسطينيّة، التي اشتهرت معارك أهلها في الدفاع عنها، والتي مازال الفلسطينيون يستعيدونها كبرهان على شجاعة الناس الذين دافعوا عن أرضهم، وأوقعوا الخسائر في صفوف عدوهم، بسلاحهم المتواضع لنقل المتخلّف والقديم غير المتكافئ مع ما يملكه ذلك العدو من آلة عسكريّة مدمّرة.

يعود الكاتب بالقارئ إلى أجواء القريّة، وحكاياها الشعبيّة، ومزاراها، وأصولها التاريخيّة، ونشأها، واسمها الذي أخذته من الصحابي الجليل (سلمة بن هشام بن المغيرة)، الذي استشهد في معركة (أجنادين).

وخالد غازي سبق وأعدّ كتابا وثائقيّا مهما عن مدينة (القدس)، وهو متابع للشأن الفلسطيني، ولذا ليس مستغربا أن يكتب بهذه الحرارة، وبعمق الانتماء لفلسطين وعروبتها.

الإشارات التي ثبّتها المؤلّف في ختام الرواية يمكن أن تساعد على تفكيك خيوطها المتداخلة، وتعين على معرفة مرجعياته في كتابة روايته.

هذه الرواية التي صدرت في العام 2005 وأعيد إصدارها في طبعة ثانية في العام 2007 تؤكّد على أن الموضوع الفلسطيني لن يغيب عن الحضور شعرا ونثرا، وأنه سيبقى حاضرا في الوجدان الثقافي العربي، رغم كل ما لحق بالقضيّة الفلسطينيّة، وبصورة الفلسطيني بسبب الصراعات الداخليّة في الفترة الأخيرة.

في هذه الرواية كّل ما يمكن أن يجعلنا نعد أنفسنا بأن يبدع هذا الكاتب أعمالاً روائيّة يتجاوز فيها عمله الأوّل المبشّر بروائي عربي موهوب وجّاد، خاصةً وقد تمرّس في كتابة القصّة القصيرة وقدّم مجموعتين قصصيتين حظيتا باستقبال طيّب من النقّاد والقرّاء.

أحمد حسين شاعرًا وقاصًا

أحمد حسين، شاعر، قاص، مفكّر، يمثّل (حالة) خاصة بين المبدعين الفلسطينيين في الداخل، وهو وإن بدأ متأخرا نسبيا في نشر نتاجه عن جيل ما سمي بشعراء (المقاومة)، الذين هبت رياحهم علينا بعد هزيمة حزيران **67**، واستقبلت بلهفة، وفخر، بعد سنوات من القطيعة القسرية القهرية التي فرضها الاحتلال الصهيوني، والتشكيك العربي بعرب فلسطيني الذين تشبثوا بالوطن، وبقوا خنجرا في قلب الاحتلال، وشوكة في عينه، فإنه حضر شاعرا، وقاصا، وصاحب خطاب وطني، قومي، سجالي عنيد.

لماذا يمثل أحمد حسين حالة خاصة؟

لأنه اختار أن يكون مختلفا، ليس (نكاية) أو سعيا منه للشهرة، ولكن لأنه آمن بعروبة فلسطين انطلاقا من (كنعانية) فلسطين وعراقتها، وكونها قلب الوطن العربي، ولأنه بدونها لا تتحقق وحدة هذا الوطن الكبير، رافضا القبول بالأمر الواقع الذي ساد بعد النكبة عام **1948**، مؤمنا بأنه طارئ مهما امتد زمن الاحتلال.

أحمد حسين اختار الخطاب القومي العربي، والذي رغم ما أصابه من وهن بسبب مؤامرة الانفصال بين سورية ومصر عام **1961**، ورحيل

الرئيس جمال عبد الناصر في 28 أيلول عام 1970، وانحسار حركة (الأرض) التي أسهمت إسهاما بارزا في بلورة الشخصية القومية العربية لفلسطينيي الأرض المحتلة عام 1948، وبقي وفيا لهذا الخطاب، لأن الأمة وإن تلقت ضربات موجعة، فإنها لن تنكسر، وتستسلم، ولأن (نهضتها) آتية بكفاح ملايين العرب من المحيط إلى الخليج.

أحمد حسين لا يرى الصراع إقليميا، ورغم نكسات القوى القومية العربية فإنه يراهن على نهوض الأمة، ولذا تراه يرهف سمعه وبصره، ملتقطا كل نأمة تهب من وطنه العربي الكبير، وهو يرفع صوته محييا كل حدث يبشّر بقيامة الأمة، وتراه صارخا في وجه الخراب، والانحراف، والغدر، والخيانة، وكل ما يعيق وحدة الأمة، وتحرير فلسطين.

يتشبث أحمد حسين بالجذور الضاربة عميقا في ثرى فلسطين، منذ (كنعان) الأوّل، وهو بكنعانيته يواجه هذه (الحقبة) الصهيونية الجاثمة على فلسطين، التي مهما امتدت ستزول حتما، لأنها (عابرة)، ولن تأخذ في كتاب التاريخ أكثر من سطر يختصرها، كونها مفتعلة، غريبة، وهجينة، ولأن الأرض رفضتها، وأهل الأرض استعصوا على الخنوع لها، وكانوا أصلب من أن ينكسروا، ويندثروا، وينقرضوا، كما خُطط بقصر نظر من أعداء فلسطين، وأعداء الأمة.

قدّم أحمد حسين مجموعة قصصية واحدة، لفتت الانتباه، وحظيت بالاهتمام، ورغم أنها صدرت عام 1979، فإن أحمد حسين انشغل بالشعر، فقدم عدّة مجموعات شعرية.

رغم المستوى العالي لقصص مجموعته (الوجه والعجيزة)، فإن أحمد حسين، كما يبدو، وجد في الشعر قدرة على التعبير عن (رؤيته) ومعاناته (الوطنية) شعبا وأرضا، فالقصيدة جمهورها أوسع سماعا، وقراءة.

دائما سعيت لمتابعة ما يصدر في (البلاد).. في فلسطين المحتلة عام 48، ولقد سهل الأمر علي، وعلى غيري، أن أخوة يغادرون إلى الدول الإشتراكية – قبل انهيار الاتحاد السوفييتي – وهؤلاء كانوا يحملون لنا آخر الإصدارات الشعرية، والنثرية، التي لم تكن تصلنا مباشرة.

وصلتني مجموعة أحمد حسين الوحيدة، وأعجبت بها، وكان أن قررنا في الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين أن نصدرها في طبعة خاصة، ولكن حرب عام 1982 على الثورة الفلسطينية، والحركة الوطنية اللبنانية، وبعد انتهاء المعركة غادرت بيروت تاركا مكتبتي، ومن ضمنها (الوجه والعجيزة).

بعد عودتي من تونس للاستقرار في عمّان عام 1994، حصلت من جديد على نسخة من تلك المجموعة، وعدت وقرأتها من جديد، فدهشت من مستواها، وهذا ما شدني لقراءة بعض قصصها أكثر من مرّة، وهو ما دفعني للتساؤل: لماذا توقف أحمد حسين عن كتابة القصة القصيرة، وقد بلغ هذا المستوى العالي من براعة القص؟!

عمله الشعري الأول (زمن الخوف) صدر في العام 1977، مع إنه من مواليد 1939 في مدينة حيفا، وهذا ما يفرض السؤال: لماذا تأخر

أحمد حسين عن الحضور مع شعراء (المقاومة)، هو الذي يكبر بعضهم بعدّة سنوات؟ هل (تفجرت) موهبته متأخرة؟ أتراه كان مترددا في خوض تجربة النشر؟

نحن نعلم أن شقيقه الشاعر الرائد راشد حسين، كان يأخذ بيد كل شاب موهوب، ويرعى كل موهبة مبشرة، فهل تردد أحمد في تقديم بداياته خشية من أن يكون (مجرّد) شقيق راشد حسين؟!

في كل حال، منذ العام **1977** وحتى يومنا في العام **2013**، أصدر أحمد حسين عدّة مجموعات شعرية، منها: زمن الخوف، ترنيمة الرب المنتظر، عنات، بالحزن أفرح من جديد، قراءات في ساحة الإعدام، وأخيرا (الزناطم) وهي قصيدة هجائية طويلة في مقاطع، كتبها أحمد حسين، كما يشير تحت العنوان الرئيس: على طريقة أبي الطيّب المتنبي.

راشد حسين شكل تحد لأحمد، وأيضا ملهما، سواء بموهبته، أو تشرده خارج الوطن، حتى رحيله (محترقا) في نيويورك، ولذا (أفرج) أحمد عن إبداعاته الشعرية والقصصية، وحتى السجالية الفكرية، ليس ليبرهن لراشد أنه مهم، وأنه غير قليل الشأن، ولكن ليواصل مسيرة راشد، بخصوصيته هو، وتميزه هو، فهو امتداد، وليس ظلاّ.

أحمد حسين قاصًا:

أسلفت بأن أحمد حسين لم يصدر سوى مجموعة قصصية واحدة، هي (الوجه والعجيزة).. وهذا العام قرأت له قصتين للأطفال صدرتا

مستقلتين عن منشورات كل شيء في الناصرة. لم أستغرب روح البراءة والطفولة في قصتيه تلكما، لأنني قرأت له في مجموعته (الوجه...) قصصا روحها ترى العالم ببراءة الطفولة.

القصّة الأولى في (الوجه والعجيزة) عنوانها (انهيار)، وهي عن ما تمثله (حيفا) لطفلين حيفاويين، لم يريا سوى مدينتهما، ولا يؤمنان بأن هناك ما هو أكبر منها، فحتى (العالم) الذي لا يعرفان ما هو بالضبط، في نظرهما، أصغر من (حيفا).

يلعب الصديقان لعبة كلامية تبدأ من شيء وتنتهي عند شيء أكبر. يقول أحدهما مثلا: أنا فنجان، فيرد الآخر: أنا إبريق.. ويواصلان إلى أن يباغت أحدهما الآخر بـــ: حيفا.. فتنغلق اللعبة، لأنه لا شيء أكبر من حيفا.

وذات يوم وهما في الصف يتنبه أستاذهما أنهما يتكلمان في حصته، فيستفسر منهما عن سبب كلامهما، فيخبره أحدهما بأن زميله يقول له بأنه لا يوجد أكبر من حيفا.

الأستاذ يبسّط له الأمر عقليا، وإذ يكتشف الولد أن حيفا ليست أكبر من العالم يجهش بالبكاء، ولا توقفه مواساة زملائه، الذين لم يعرفوا سبب بكاء زميلهم، الذي ظل يبكي بحرقة رغم هدهداتهم!

لا يكف أحمد حسين عن الكتابة لحيفا، التي هي عنده العالم، وقد نما وعيه، وكبر سنوات، عن الغناء لحيفا شعرا، ونثرا، لأنها عنده العالم، أي

الحياة، آي الكينونة، أي الجمال، والحق، والعدل، وبدونها: لا عالم، ولا حرية، ولا عدل.. ولا حياة حقيقية.

لا تكتبي حيفا إلي

أنا الرسالة والمراسل

شفتاي عنواني الوحيد

وأنت أغنيتي الوحيدة

لا تبحري حيفا إلي

أنا السفينة والمسافر

تدرين مينائي!...

فهل في الأرض من حيفا جديدة!!

قصيدة (الرحلة)، من (زمن الخوف)

إذا كانت قصة (انهيار) هي قصة التعلّق بحيفا، والتوحد بها، وعدم رؤية شيء أكبر منها، حتى لو كان العالم، فإن قصة (شيء فلسطيني)، هي قصة احتراق الفلسطيني بالنابالم، وما يحدث للفلسطيني في هذا (العالم)!

القصة مكتوبة مسرحيا، ويمكن التعامل معها كمسرحية من فصل واحد، تنتظر فقط المخرج البارع الذي يقدمها على الخشبة، بعد قليل من الإعداد.

في القصة امرأتان تواجهان لحظة ليست عابرة في حياتيهما، إنها لحظة التعرّف على الزوج في جثة متفحمة أحرقت بالنابالم.

ثمة شخصان كانا في المصحة، هما زوجا المرأتين، والوقت حرب.. والحرب هنا تشن على الفلسطيني، دون تحديد زمنها، ودائما شنت حرب على الفلسطيني، ودائما استخدم العدو أسلحة فتاكة حارقة، تفحمت بسببها أجساد فلسطينية.. وهذا هو (الشيء الفلسطيني) !

تنتهي قصة (شيء فلسطيني) بالمرأتين، حين اشتد القصف، وبعد صراع مع النفس، وعدم التعرف على الجثة المحترقة، وتحديد لمن تعود، بالالتصاق معا.. إلى أن أصبحتا امرأة واحدة.

في قصة (الشوط الرابع) نتابع بمتعة، تحوّل الطفل، والانتقال من حالة الخوف الدائم من مصطفى والتنازل له عن أي شيء يمتلكه لقاء رضاه، لا عن حب وصداقة، ولكن عن خوف بات مزمنا. ذلك الولد قدم من مكان آخر، وفورا استبد بالأولاد في الحارة، وجعل يبتزهم..

ذات يوم أهدى الأب ابنه دراجة بثلاث عجلات، فما أن رآها، حتى وضع يدها عليها، وجعل يلعب بها مستمتعا، غير آبه بالولد صاحبها...

لحظة التحول لم تتحقق فجأة، بل جاءت بعد استعداد، وتدرّب مع الشقيق الأصغر حسن، قبل الاستعداد للمعركة، التي يخوضها في اليوم التالي وهو خائف، ولكن تشجيع شقيقه ورهانه عليه، دفعه لتطبيق ما تدرَّب عليه، وما كان يفعله معه، ومع زملائه، فأسقطه أرضا، وانهال

عليه ضربا مبرحا حتى ارتفع صراخ ذلك الولد الشقي الآتي من مكان بعيد...

قصة تبدو، وهي كذلك، بريئة، ولكنها مفعمة بقول (كبير)، فاستعادة الحق لا تكون بالتوسل، والصراع مع المعتدي يتطلب الاستعداد.

الهزيمة يمكن أن لا تكون دائمة إذا ما جرى الاستعداد للمواجهة بإرادة، وجد، وروح مقاتلة لا تنكسر في الميدان.

القصة القصيرة تلتقط دائما حياة المهمشين، والمضطهدين، وتقتنص لحظات صغيرة تنبئ بالتحوّل، وهذا ما يفعله أحمد حسين في قصصه.

في قصة الوجه والعجيزة، نقرأ قصة العلاقة بين شاب عربي فلسطيني وفتاة يهودية، والإثنان من (القاع)، هو عامل يشتغل بجسده، وهي تعيش من جسدها ممتهنة محتقرة ممن يستعملون هذا الجسد ويبتذلونه، ويحتقرونها وهم يهود مثلها.

يلتقي بها الشاب العربي، يشتهيها، ويتواصل معها إنسانيا، ومعا يبنيان (براكة) في خاصرة حي بائس في حيفا، ولكن أبناء دينها لا يتركونها تهنأ بعلاقتها مع العربي.

رغم أنها من القاع، ومضطهدة، و(العربي) يعاملها إنسانيا، إلاّ أن العلاقة تنهار، لأنها لا تتخلى عن (مجتمعها)، ولا تستطيع الفكاك من (الثقافة) العنصرية التي زُرعت في نفسها.

ليزه هذه: مدرسة ابتدائية، ستة أعوام في الكيبوتس. عام في الخدمة العسكرية، وعامان في الخدمة العامة.

يقول هو بعد هذا التعارف: اتفقنا. ونقرأ في النص: وغرقنا في الضحك والعناق، وكان الأمر مجرد تمثيل.

فشل هذه العلاقة بدأ منذ بدايتها، فهي غير سليمة، غير صادقة، في بيئة غير طبيعية، في زمن غير عادل، على أرض مستباحة ممتهنة، محتلة.. وممن؟ من أهل ليزه، التي رغم وضعها الاجتماعي المتدني، وانتباذها، فإنها ابنة ذلك المجتمع المُمتهن لآدميتها.

تغيرات في الصلاة الإبراهيمية!

هذه القصة المكتوبة ببراعة، ومكر، تقدم للقارئ (فكرة) مهمة من خطاب أحمد حسين الفكري المفصلي، فهو يتجنب طرح خطاب استفزازي يقحمه في مواجهة غير عادلة مع المتزمتين.

يرى أحمد حسين أن كنعانيته سابقة على كل ما جاء بعدها، وأدى إلى تغييبها حضاريا. هو يرى أن ما حدث زوّر التاريخ، وأحل مكانه تاريخا معاديا غير إنساني، تاريخا قطع سياق تطور أرض كنعان وشعبها، وحضارها، وهو يعمل بضراوة: فكرا، شعرا، قصصا، على إعادة كتابة الحكاية كما هي في سياقها المقطوع قصدا.

في هذه القصة يقول احمد حسين (كل) ما يريد، على ضخامته، في قصة قصيرة، ودون أن يوقع نفسه في براثن المنحازين لما بعد الزمن الكنعاني.

دعنا من خطاب أحمد حسين، سواء كنا نشاركه فيه، أو نخالفه، ولنتأمل القصة الممتعة الفكاهية، التي حملت (خطاب) القاص.

العلاقة بين الشيخ علي و(إبراهيم) هي سلسلة مقالب، فالشيخ يرى في إبراهيم زنديقا مارقا كافرا، وإبراهيم يسخر منه، ويتلاعب به. ولأن الشيخ يستغل مشيخته في المسجد فإنه يشهر بإبراهيم في الصلاة، ومن على المنبر. وذات يوم يمرض الشيخ، ويكتب له الطبيب وصفة، فيلتقي إبراهيم.

يزور الراوي الشيخ الذي تبدل حاله بعد شرب الدواء، فيراه وهو يزمجر، وفي حال لا يمكن توقعه، فهو يطالب بتغيير الصلاة الإبراهيمية، لأنه غير مقتنع بها.

تخبر الزوجة الراوي: إمبارح قبل صلاة الظهر أوجعه قلبه، أخذناه على العيادة، وصدفة لقينا الدكتور هناك، فحصه وأعطاه روشيتة، وقال بتجيبوا الدوا من الفرمشية. اليوم نزل أبو مصطفى أعطيناه إياها جاب الدوا وقال: اسقوه عالوقعة فنجانين، وإن ما راقش ثلاثة. وهو شرب الدوا من هون، ومثل ما أنت شايف.

يسأل الراوي أبا مصطفى فيخبره بأنه: يا أخي أنا لا جبت دوا، ولا غيره. ولا بعرف فنجان من فنجانين. مبين هاي شغلة موت من حياة، وأنا لا دخلت ولا عبرت. اللي جاب الدوا الحقوه.

تعلق الزوجة مندهشة:

- ولو، من إيدك لأيدي...

أبو مصطفى بلهجة المذنب:

- من إيدي لإيدك.. صح. لاقاني العكروت في الباص، قلتله معكش خبر جارك! قللي: لا. حكيت له، عمل حاله كله شفقة. قللي: روح شوف شغلك، وأنا بحال الطبيعة رايح عالفرمشية، بجيب الدوا معي، وهيك صار.

يطلب الراوي من الزوجة أن تحضر زجاجة الدواء، فتحضرها، فإذا بها (جوني ووكر)! فيحملها ويخرج من البيت وهو يضج بالضحك...

قصة ملعوبة، مكتوبة ببراعة ومحبوكة، تدلل على براعة الكاتب، ويؤسفني أنني لا أستطيع نقل روح الكوميديا فيها، والتي تنطوي على خطاب خطير!

في المجموعة قصص مكتوبة عن يهود، ولعلي شخصيا لم أقرا من قبل قصصا مكتوبة عن اليهود في فلسطين، من وجهة نظر كاتب عربي، مثل قصة (وفاة شموئيل ميلنكي)، وهذه القصة تروي نهاية الضابط الذي أمر بقتل **48** مواطنا عربيا من أهالي قرية كفر قاسم، وهم في طريق عودتهم

من حقولهم، وكان ذلك في اليوم الأول للعدوان الثلاثي على مصر عام 1956.

هناك قصص تتواصل، وكأنها فصول في سلسلة قصصية، وهي مع ذلك تمتلك بنيتها المستقلة مثل: (القتل والموسيقى)، و(النائحة).

ولأن الكاتب عربي فلسطيني، فإنه بالتأكيد يعيش كوابيس المطاردة المستمرة التي يتعرض لها هو، وغيره من أبناء شعبه، داخل الوطن، أو في مخيمات الشتات. قصة المطاردة التي يتعرض لها بطل القصة، ولا ضرورة لنعرف من هو، فهو فلسطيني مطارد، من جنود الاحتلال، الذين يسوقونه إلى موته، رغم أنه ركض للنجاة منهم.

لا عجب أن يكتب أحمد حسين قصصا للأطفال، ففي داخله براءة، وفي شعره براءة، وهو يختزن براءة غنية في روحه، ولا غرابة أن يكتب ببراءة، ومرارة، وسخرية، وغضب، شعرا ونثرا...

أحمد حسين صوت الغضب الفلسطيني في الداخل، ومن المؤسف أن صوته لا يصل إلاّ للقليلين في الوطن العربي، وحتى لأهله الفلسطينيين في الشتات، وربما يعود هذا إلى أنه لا ينضوي في أي إطار سياسي، وإن كان (ناصريا) فهو مستقل، وحُر، وسيّد نفسه، وهو جامح كجواد عربي أصيل.

الحاسة صفر.. فضح الخراب في زمن الجنون

أحمد أبو سليم شاعر قدَّم من قبل ثلاث مجموعات شعرية، وحقق لنفسه حضورا في الحركة الشعرية الأردنية الفلسطينية، ولكنه – كما يبدو – لجأ إلى الرواية لأنه وجد فيها ما يمكنه من نقل تجربته المُرّة التي عاشها في الفترة التي أعقبت ترحيل الثورة الفلسطينية من بيروت عام **1982**،

وشتت فيها المقاتلون بالسفن إلى بلاد العرب البعيدة والقريبة، ليبقى بعدئذ بعض المقاتلين في منطقة الجبل المطلة على بيروت، تحديدا في منطقة سوق الغرب، وقرب بلدة عيتات.

الواقع المكتظ بالتفاصيل، والأشخاص الذين لا يمكن التعبير عن تجاربهم شعريا، والأحداث التي بدّلت حياة من عاشوها، والتي تختزن في عتمتها جوانب تظل خافية ما لم يُقيّض لها روائيون مبدعون يتخطون ما تدعي الكتابة التاريخية أنه الحقيقة المطلقة النهائية، وخاتمة كل قول.. هذه وغيرها الدافع لأحمد أبي سليم، ولغيره من الشعراء العرب الذين وسّعوا دائرة إبداعهم الشعري، لينتقلوا لكتابة الرواية.

يبدأ أبو سليم روايته بإهداء يشكل عتبة النص، ويمكن أن يكون دليل تفكيك للنص، وإعادة بنائه، بحيث تنجلي غوامض الرواية، وخلفيات الشخصيات والمعاني المضمرة، والرسالة التي يريد الكاتب لها أن تصل.

يقول الإهداء: إلى كل من سيجازف بقراءة هذا النص المجنون جدا، الواقعي جدا، وكأنه لعبة كلمات متقاطعة.

ربما تكون قراءة الرواية، مطلق رواية، مجازفةً، لأن القارئ لا يعرف قيمتها ومدى إمتاعها، إلاّ بعد الفراغ من قراءتها، بحيث يمكنه عندئذ أن يحكم عليها، وهكذا فكل قراءة هي مجازفة، وليست فقط قراءة رواية أحمد أبي سليم.

في إهداء أبي سليم إغواء واستدراج، فهو بالتأكيد يرغب أن يقرأ القارئ روايته بدليل أنه كتبها وطبعها وعرضها للقارئ في المكتبات.

بعد أن قرأت رواية 'الحاسة صفر' يمكنني القول بأن قراءتها لم تكن مجازفة خاسرة، وإن أثقل (جوها) المقبض على نفسي، فالفترة التي تعالجها الرواية كانت فترة محزنة، قاهرة، ثقيلة الوطء على نفوس الفلسطينيين واللبنانيين وكل عربي تعنيه فلسطين.. وهي الفترة التي أعقبت احتلال بيروت عام **1982**.

كل قراءة سفر، وكل سفر مجازفة، وكل مجازفة ستنتهي بربح للقارئ مهما كان ما يقرأه، لأن القراءة تنمي حس النقد والمعرفة وتصقل الذائقة.

شخصيا ربحت من قراءة رواية أبي سليم، التي هي روايته الأولى، وإن كان يعلن في حوار أجرته معه صحيفة 'الدستور' الأردنية بأنه كتب من

قبل ثلاث روايات، ولكنه لم يقدم على نشر سوى هذه الرواية، التي يبدو أنه رضي عنها فنا وقيمة.

الرواية مكتوبة بضمير الراوي (سعيد)، الذي يتميّز غضبا وسخطا من الجملة الأولى يبدو على أحد ما، نعرف بعد قليل من الكلام أن هذا الشخص هي أمه، والسبب أنها ورطته بإلحاحها وبكائها بمغامرة البحث عن الشقيق المختفي منذ أيلول (سبتمبر) **1970**، الذي انقطعت أخباره منذ ذلك الوقت.

هي إذًا رواية بحث، وفي فترة البحث الممتدة حتى ما بعد احتلال بيروت ورحيل الثورة الفلسطينية، تقع أحداث ونتعرف بأشخاص ونعايش التجربة الثقيلة المرّة التي يعيشها الراوي سعيد ورفاقه المنسيون في تلك الفترة الزمنية والمكان المعزول.

زمن الرواية يمتد على مدى ثلاثة عقود تقريبا، تتبأر زمنيا في فترة ما بعد رحيل الثورة عن بيروت..حتى (أوسلو)، ووادي عربة، وزيارة شمعون بيريز لعمّان، وتسكعه في شوارعها، وهو ما يدفع سعيد الغاضب للتخطيط لاغتياله، بعد تدبير بندقية، والنزول في فندق شعبي قرب جامع الحسين في قلب العاصمة عمّان.. (وهذا جانب من اللامعقول في الرواية، وهو ما يدلل على لامعقولية ما يجري، وما آلت إليه الأحلام والأماني والمقاومة التي وعدت بتحرير فلسطين).

الرواية تأخذنا من الواقع المعتم الثقيل على النفس إلى الفانتازيا، والسريالية التي سببت اختلاط الحواس لدى سعيد الذي فقد الحواس الخمس، وبات يعيش في حالة (الحاسة صفر) التي يفسرها بأنها: الحاسة صفر هي الحاسة التي لازمتني منذ ولادتي. الحاسة صفر هي حاسة الخيبات والوجع الذي لا يتوقف أبدا، هي الحاسة التي لا تصل إلى حقيقة قط، حاسة القلق والشك والألم. (ص **151**).

الرواية الواقعية جدا، المجنونة جدا، هي رواية الشك والقلق والألم، فأبطالها الذين هم بلا بطولة، يائسون قانطون يعيشون أيامهم بطالة، فالفدائيون لم يعودوا فدائيين مقاومين بعد رحيل (الثورة) عن بيروت، ومن جنوب لبنان، وإن بقوا في قواعدهم القليلة المعزولة في سوق الغرب وعيتات، وأمكنة معزولة متفرّقة، وإن اشتبكوا أحيانا روتينيا مع جيش الاحتلال الذي استباح بيروت ولبنان.

الراوي واحد من الطلاب الجامعيين الذين تخلّوا عن دراستهم في الاتحاد السوفييتي، ووفدوا إلى سورية، ثمّ دخلوا الأراضي اللبنانية، ليؤدوا واجبهم الوطني في فك الحصار عن بيروت، وإلحاق الهزيمة بالاحتلال.. فكانت خاتمة المعركة رحيل الثورة، وتيه ما بعد أوسلو.

من بقوا تحولوا شيئا فشيئا إلى بقايا ثورة، وبقايا مقاتلين تخلت عنهم قياداتهم اليسارية واليمينية، التي ركضت وراء الوهم بعد ما تخلّت عن الطريق والأهداف والكفاح المسلّح!

كل شخصيات الرواية معطوبة، مدمرة داخليا، وكل ما حولها لا يمنحها الثقة بشيء، فهم ليسوا بين جماهيرهم، وهم خارج الزمن الفدائي المقاوم، وهم في زمن استباحة الاحتلال وحلفائه لصبرا وشاتيلا، يرون ويعجزون عن الفعل، وهم منسيون يأكلون ويشربون ويدخنون ويتبادلون الشك والريبة بعد أن فقدوا اليقين بكل شيء، وانغلقت في وجوههم الدروب.

في الرواية حبكتان تقودان خطى (لا أبطالها) وراويها سعيد، وهما: بحثه عن شقيقه الغائب مجهول المصير عيسى، وملاحقة (لفائف) البحر الميّت التي بلغه أن بعضها وصل إلى كنيسة سريانية في زحلة بلبنان، هذه اللفائف تريدها (إسرائيل) لتلحقها بما استحوذت عليه من قبل، لتخفيها عن الباحثين والمؤرخين لأنها ربما تكشف عن عدم مصداقية وعد التوراة، وتلفيق ادعاءات الحق التاريخي.

علاقات شخوص الرواية تتداخل، وتنهار بسبب الشك مخلفة المرارة، وخيبة الأمنيات، وتبدد وهم الحب بسبب العطب الذي أوقعته مأساة مذبحة صبرا وشاتيلا.

سعيد الراوي، أبو الفوز، جورج، ميشيل، خليل، نضال، ليلى، دلال.. هذه الشخصيات (تعيش) في اللحظة المريضة الملتبسة، فتفقد توازنها بسبب الظروف المحيطة المحبطة، ولا تجد ما يسندها ويعيد إليها توازنها، فالظروف والبيئة واللحظة.. كلها مُحبطة، وهم لا يقاومون بنفس مضاء الروح الذي ميزهم في زمن مضى.

يهبط سعيد مع أبي الفوز إلى صبرا وشاتيلا، ويتعرف بشقيقة أبي الفوز في الرضاعة (دلال)، وبابنتها ليلى، ويقع في حب ليلى بسرعة، ربما لحاجته للحب هو المعزول في قاعدة (الخمسين) في الجبل، حيث لا حضور للمرأة بين ذكور يعيشون حياة جافة.

هذه هي العلاقة الوحيدة في الرواية، وهي علاقة تبدأ من خلال البحث عن عيسى؛ فليلى فتاة اللاسلكي تساعد سعيدا في البحث عن شقيقه، ورغم الود الذي تبديه فإنها تتهرب من سعيد، ولا تعطيه شيئا، بل وتربك أيامه.

ليلى هذه تعرضت للاغتصاب من شقيقها أحمد، ومن بعد من الكتائبيين الذين امتهنوا جسدها في شاتيلا، حيث أن شقيقها اعترف لهم بأنه يعمل جاسوسا مع (إسرائيل) لعلهم يرحمونه.. ولكنهم مع ذلك تناوبوا على جسد شقيقته، وتركوها مدمرة النفس، فلجأت إلى حرق جسدها، وبقيت بعد إنقاذها مشوهة الفخذين والنفس، وهذا ما دفعها للتهرب من سعيد الذي أحبته، ولكنها لا تملك أن تعطيه حبا بهذا الجسد المشوّه، ونفسها المدمرة!

أبوالفوز المقاتل الطيب يخدع سعيدا، عندما يضلله بدس ابنة شقيقته عليه، لتدَّعي بأنها زوجة عيسى، وبأنها أنجبت منه، وأنه استشهد أثناء الاجتياح!

خليل رجل الأمن يكيد بسعيد، ويقدم نموذجا بشعا لرجل الأمن في الأجهزة الفلسطينية التي لا تختلف عن الأجهزة الأمنية العربية، ويعاني سعيد على يديه اضطهادا ومكائد وتعذيبا.

ميشيل اللبناني الماروني الذي يقدم للمقاومة خدمات الاتصال بين المناطق، ويغامر بنفسه يقتل على حاجز في الجبل، رغم كل محاولاته إفهام من قبضوا عليه بأنه مقاوم في صفوف فصيل فلسطيني يساري، وهكذا يفقد حياته بالمجان.

هناك من تخلّى عن الثورة، وانتقل ليعمل مستشارا في مفاوضات (أوسلو) في زمن انقلاب المفاهيم والقيم وضياع الأخلاق الثورية! وفوق كل ما تقدم فإن الرواية مكتوبة عن فترة الاقتتال الفلسطيني – الفلسطيني، وهذا ما يفاقم المرارة، ويزيد التفكك والشعور بالعجز وفقدان كل يقين!

الرواية قاتمة، معتمة، مغلقة الأفق، ليس فيها خيط نور، أو أدنى بصيص أمل!

ولعلّ هذا ما يدفع للتساؤل: لماذا كتب أحمد أبو سليم روايته هذه؟

هو واحد ممن تخلوا عن دراستهم الجامعية واندفعوا لتقديم أرواحهم فداء للقضية والثورة. وهو شاعر قدم شعرا يبشر بفلسطين حرّة، وبمقاومة هي الأمل والخيار الذي لا خيار سواه.

لماذا كتب أحمد أبو سليم روايته بعد عقدين من الزمن مرّا على تلك التجربة والفترة والأحداث؟

لأننا الآن نعيش حالة ضياع، فأوسلو لم يحقق سلاما، والقضية الفلسطينية تضيع والفلسطينيون منقسمون والاحتلال يتوسع، والاستيطان يسرق المزيد من أرض فلسطين، وشعبنا مُغيَّب عن قضيته.. والعجز هو سيد المشهد والحال!

الانتفاضة التي كانت إبداع شعبنا، في فترة التيه، ما بعد الرحيل في السفن قويضت بأوسلو، وهكذا عدنا لدوامة الخسران!

ما يحدث حاليا دفع أحمد أبو سليم ليعود إلى تحديد بداية الخراب، وسبب التيه والضياع والانحراف.. بداية تفشّي الأمراض والركض وراء سراب وهم السلام مع عدو لا يمكن أن يتخلّى عن شبر من أرض فلسطين إلّا بالمقاومة.

كتب أحمد أبو سليم روايته الصرخة، رواية الغضب الجامح التي تنقل هول الواقع وجنونه، الواقع الذي ما زال يجثم بقبحه وخرابه على العقول والنفوس والضمائر، ويفسد حياتنا، ويغلق أبواب الأمل علينا إذا لم نغيّره جذريا، ونتجاوزه متسلحين بدروس التجربة الرهيبة التي دفعنا ثمنها شعبا وقضية!

الشاعر لم يتخلّ عن شاعريته في روايته الأولى هذه، فثمّة مقاطع في الرواية شعرية بامتياز، وزنا وقافية و(روحا)، وهي لم تثقل على النص، ولم

تأخذه بعيدا عن النص الروائي النثري المكتوب ببراعة وعناية، تمكنت من جعلي شخصيا لا أشعر بالندم لأنني (جازفت) وقرأته.. خاصة وأنا عشت بيروت، وما بعدها، وأعرف معاناة من بقوا (داخل) بيروت.. وحولها، وعلى مقربة منها.. وقاتلوا في أوضاع ميئسة ومحبطة.. ولكنهم صمدوا واستمروا، وما زال بعضهم، وبعض من تربوا على أيديهم، وقيمهم.. هناك يحملون السلاح، وقد ازدادوا يقينا بأن المقاومة هي الخيار، والسبيل إلى فلسطين.

رواية تدعو للفعل، للنقد، للتجاوز.. رغم سوداويتها، وربما بسبب هذه السوداوية والمرارة التي يرفعها الغضب عاليا لتملأ بصراخ (لا أبطالها) الأسماع.

بذور البوار.. قصص عن ثورة مغدورة

لم أقرا من قبل نصّا أدبيّا عن ثورة (ظفار) التي خمدت نيرانها وانطفأت، وتفرّق ثوراها، فمنهم من (كوّع) وباع، ومنهم من اختار المنفى اضطرارا، ومنهم، ومنهن.. من احتواهم ثرى بلادهم الذي افتدوه، هم الذين وعدوه أرضا وبشرا بالحريّة.

محمد الشحري، كاتب عماني شاب، صدرت له في العام **2010** مجموعة قصصية بعنوان (بذور البوار)، وأنا أقرأ له للمرة الأولى، ولعلها أيضا المرة الأولى التي أقرأ فيها نصوصا نثرية عُمانية، وهذا يعود ليس إلى تقصير منّي، ولكن إلى أسباب خارجة عن قدراتي، فأنا أتلهف دائما على قراءة نصوص نثرية من البلدان العربيّة التي لم أطلع على كتابات مبدعيها، ولكن حظّي مع الشعر أفضل، فقد قرأت أعمالاً شعرية عُمانية، وتعرّفت بشعراء من عُمان.

تتوزع هذه المجموعة بين (الحكاية) و(القصّة القصيرة)، ويجمع نصوصها: شعور بالمرارة بسبب البوار الذي آلت إليه الثورة، ولخيانة (رفاق) تنكّروا للمبادئ، وانتقلوا إلى مناصب أغرقهم بها السلطة، فكانوا أحد أخطر أسباب البوار، والزمن الخراب.

يهدي الشحري قصصه: إلى شهداء ظفار.. أهديهم آلام الجراح.

ثمّ يهدي القصّة الأولى المعنونة بـــ (طفول): إلى روح المناضلة البحرينية ليلى فخرو التي رحلت في **28** أيلول **2006**.

أمّا (طفول) فهي ثائرة استشهدت في إحدى المعارك، وبقيت منها صورتها المعلقة على جدران بلد ما زال يحتفي بالثورات، كوبا، التي ما زالت مخلصةً لذكرى الثوّار والثائرات، وإن اختلفت اللغات، والقارات، كون الأهداف واحدة، والأعداء هم أنفسهم في كل مكان، وشهداء وأبطال وبطلات الثورات في كل القارات يجمعهم هم واحد: حريّة الإنسان وكرامته.

طفول هنا ليست مجرّد فتاة شهيدة، إنها الثورة نفسها التي غُدر بها: ما يؤلمني ليس المشهد الأخير في هذه الرحلة، أو هذا الضياع، بل أن كل الحوامل ولدن إلاّ حملك يا طفول لم نره، ولم نعرفه: ذكر أم أنثى (ص **15**)

الكاتب الغاضب، كما تشي نصوصه، ينتمي لجيل دفع ثمن (البوار) لأنه يعيش فيه، فمن وعدوا.. تبددت رياحهم، ولذا تراه يبدأ نصّه (صحف المجانين) كما لو أنه يكتب منشورا سياسيا: الغرباء امتلكوا أرضي، ولم يعد لي فيه موطئ قدم سوى الصمت والحنين. وشعبي مكبل بالرسوم ومخنوق بالأسعار، شعب لا يملك الحقَّ في السؤال حتى عن ثمن زيته. أناس يستظلون بخوف يُسمّى أمنا، ويصدقون مقولة الأرباب إنهم شعب سعيد.

بعد هذا المدخل الصارخ المُدين للعسف، يأتي النّص الأدبي، غنيا قاتما أحيانا، ملتاعا أحيانا، مسكونا بالمرارة في كل فقرة، ومشوبا بشيء من السخرية، وكثير من المرارة.

تنتهي الثورات الفاشلة غالبا بالخيانات، وقفز (الشطّار) من الثورة إلى عقد الصفقات على ما بشَّرت به، سعيا للمكافأة بالمنصب والجاه والمال.

هذا ما نقرأه في قصة (نحبوها)، وهي مواجهة بين من باع، بحجة الواقعية، ومن دفعت ثمن إيمانها بالثورة عينها وشبابها، وبقيت على العهد لمن آمنت معهم بالحلم، والوعد، وحافظت على العهد عن إيمان ويقين مهما غلت التضحية، وفدح ثمنها.

ينتقل الكاتب بالقارئ إلى عالم الحلم، كما في قصة (يان أجدريت)، وهو اسم بطلها العجوز المحب للإبل الذي يسترق السمع على أبنائه الذين يتشاورون لبيع النوق تخلصا من تكلفة علفها، ورعيها، هي التي لا تدر عليهم، كما يقولون متذمرين، سوى حليب بطعم زيت السمك.

يستخدم الكاتب آيات قرآنية من سورة (يوسف) ببراعة:

- يا أبانا مالك لا تأمنَّا على (سمهور) وابنها، إنّا لها لراعون، أرسلها معنا غدا تسرح وترعى إنّا لها لحافظون.

وسمهور هي ناقة يحبها يان أجدريت، وتمثّل له ماضيه، وحلمه، والمستقبل الذي يتمنّاه.

يقع البسطاء ضحايا للشركة التي تشتري منهم إبلهم، وتخدعهم بصحون لاقطة، وتلفزيونات، وهواتف نقّالة.. وهكذا يخسر يان أجدريت كل شيء، فلا حليب نوق، ولا ذكرى لزوجة وفيّة، ولا ناقته سمهور الغالية.

قد تبدو الأسماء في القصّة، وغيرها من القصص غريبة بالنسبة للقارئ العربي، ولكن الكاتب يشرحها، هي والمفردات التي ترد في الحوار بين شخوص القصص والحكايات، فتزداد دهشتنا واستغرابنا لهذه (اللغة).. أو بقايا اللغة التي نجهلها!

في كل حال ها أنا ذا أتعرّف على مفردات من (الشحرية) التي لا أدري إن كانت تعود إلى اللغة العربيّة القديمة، أو إحدى تفرعاتها، أو لعلها تعود إلى اللغة الحميرية المنقرضة والتي بقيت منها مفردات في منطقة شحار العمانية، وفي اليمن.

قصّة (ما تبقّى من ظفار)، هي قصّة ما تبقّى من زمن الثورات، والأحلام، والاتحاد السوفييتي، والدراسة في جامعة (باتريس لومومبا) أو (الصداقة بين الشعوب)، وهي الجامعة التي كانت تستقبل طلاّب العالم الثالث من القّارات الثلاث لينهلوا العلم ثمّ يعودون إلى بلدانهم مستنيرين، مثقفين أمميين، ومشاريع مناضلين، وغالبا عشّاقا لرفيقات سوفييتيات، أو من بلدان مختلفة، ولتشتعل القلوب حبا، وأحلاما.. وبعد الانهيار (العظيم)، وفشل الثورات: خيبات وحسرات.

كتب الشحري قصّته ببراعة، فبطل القصة يعمل في مكتب للبريد، ومدير المكتب يطلب من العاملين إتلاف كل الرسائل القديمة المرتجعة التي مضى على وجودها على الأرفف سنوات ولم تصل لأحد، وما عاد لها لزوم.

يلتقط (الموظف) رسالة قديمة مضت عليها سنوات عشر، وهي مرسلة من مواطن ظفاري درس في الاتحاد السوفييتي، أحب فتاة وعدها بالعودة إليها، ولكن الاتحاد السوفييتي انهار، وجدار برلين سقط، و... ومرسل الرسالة (الظفاري) وجد أن بلده تغيّر عندما عاد، ويختتم الرسالة – القصّة: بعدها بثلاثة أشهر حصلت على وظيفة في مصلحة حكومية. أعيش على هذه الرتابة، لا غد أنتظره ولا يوم أستمتع به (أنا) سأظل متعلقا بك إلى أن تتوقف الأرحام عن الدفع. ويرم الدهر أبداننا، وتبلع الأرض هذه الأرصفة ومن عليها.

البراعة الفنيّة في القصة، أن الرسالة واحدة من الرسائل (المُرجعة) التي لم تصل إلى العنوان الموجهة إليه في الاتحاد السوفييتي!

في مجوعتة القصصية الأولى يقدّم محمد الشحري نفسه كاتبا موهوبا، وصاحب موقف، ويبشّر بقاص قادم.

وبعد: إذا كانت هذه المجموعة تطفح بالمرارة والإدانة، فإنها قد جاءت قبيل انفجار الثورات العربيّة بقليل، ولعل في هذا ما يؤكد على أن الثورات المغدورة لم تذهب سدى، هي وتضحيات من دفعوا الثمن لرفعة

أهدافها، فهي البذور التي تينع هذه الأيّام من المحيط إلى الخليج، لأن أسبابها من زالت تحضُّ على الانفجار الثوري على المستبدين الطغاة في كل بلاد العرب.

*صدرت بذور البوار عن دار الفرقد في دمشق ، أواخر **2010**

* القدس العربي، **4** آب **2011**

قيد الدرس: رواية المهمشين.. الغرباء في وطنهم

قيد الدرس، هي الرواية الأحدث للروائية والقاصة لنا عبد الرحمن، هي رواية المهمشين الغرباء في بلدهم لبنان، الذي لا يعترف بمواطنتهم، ويؤجل البت بها، ويضعهم في حالة تائهة، فلاحقوق لهم، رغم أنهم لبنانيون أبّا عن جد.

هؤلاء ينتمون إلى القرى الجنوبية السبع التي احتلها الصهاينة في حرب الـــ **48** وهجّروا أهلها، ليضيعوا على امتداد سنوات، وقدوضع مصيرهم تحت حالة مزمنة وصفت بـــ (قيد الدرس)!

لا تكتب لنا عبد الرحمن رواية (أنثوية)، كما تفعل بعض الكاتبات العربيات، فهي معنية بمصائر أفراد أسرة تتشرد من الجنوب اللبناني إلى بيروت.. وبعد حرب الـــ **82** إلى منطقة مهمشة، شبه منسية في لبنان، تقع في البقاع، على الطريق إلى دمشق، تُعرف بـــ " دير السرو"، لتعيش في ظروف مأساوية مزرية، ولتتحمل الأم نجوى أعباء الحياة في غياب الزوج المنتمي للمقاومة، والذي لا يتحمل مسؤولية أسرته، ولا يعتني بأولاده وبناته، ويتسبب للأسرة بالتوتر، والقلق، وبالشجار الدائم مع الزوجة عندما يحضر، وهو لا يحضر إلّا نادرا، فالأسرة عبء يقع على نجوى الزوجة، وهو بحجة الانشغال بالمقاومة يتنصل من حمل هذا العبء.

حال هذه الأسرة لا يختلف كثيرا عن البدو المقيمين في "دير السرو"، الذين يعملون في الزراعة، والتهريب، والمخدرات، ويعيشون في الحضيض مع أسرهم، مجهلين، مهملين، منسيين.. والذين مصيرهم معلّق تحت عنوان لحالة غير معترف بمواطنتها: قيد الدرس.

تعرف لنا البيئة التي تدير فيها روايتها، ومعاناة ناسها، وظروف عيشهم البائسة، فيدهش من يحمل فكرة سياحية عن لبنان (الخضر الحلو) لكل هذا البؤس، وهذا التهميش..

أسرة نجوى انتقلت من واد أبي جميل في بيروت، إلى دير السرو، وواد أبي جميل يضم أشباه مواطنين، كلهم قيد الدرس، فيهم الكردي، واللبناني الجنوبي، وسُكّان آخرين!

أسرة نجوى تنتمي لأب كردي، وأم لبنانية جنوبية، سعاد، التيأحبت عوّاد الكردي وهربت معه، وأعانت ابنتها نجوى، بعد فقدان زوجها، وتركت العبء على ابنتها نجوى مع أفراد أسرتها: حسان، ليلى، ياسمين، حسن.. عندما رحلت عن هذه الحياة.

تمزّقت الأسرة، فياسمين صارت فنّانة، مزواجة، أنجبت بنتا رمتها على أمها نجوى، وحسن تمشيخ وأطلق لحيته، وحسّان غادر إلى فرنسا وتزوج من فرنسية.. وليلى تزوجت زواجا فاشلاً، وعادت للعيش مع أمها، والأم نجوى في كل الأحوال شالت الهم، وحُرمت من الحب مع الكردي الذي أحبته ذات يوم قبل الزواج من زوجها المقاوم.

هل أقول بأن الرواية ممتعة؟ ما الممتع برواية تقبض النفس، وتملؤها بالحزن؟ الممتع الفن الجاذب للقارئ...

رغم ما في (قيد الدرس) من قتامة، فإنها تشدنا لمتابعة مصائر شخوصها، وتأخذنا إلى بيئة يجهلها كثير من القرّاء، فالمكان بطل رئيس في الرواية، حيث تعيش أسرة نجوى، وكثير من أسر الجيران حياة رثّة، هامشية، بائسة، مهينة..

رواية (قيد الدرس) – منشورات دار الآداب، بيروت 2016– هي رواية الغرباء في وطنهم، رغم منحهم بعد سنوات الانتظار التي طالت جنسيةلبنانية، لم تغيّر في أوضاعهم الاجتماعية، ولم تنتشلهم من حياتهم في القاع حياة فاقة وغربة وتمزّق.

لنا عبد الرحمن كاتبة جادة، تعرف عن ماذا تكتب، ولماذا، تسرد روايتها بسلاسة وبراعة، وبخبرة.

رواية "قيد الدرس" صدرت عن دار الآداب، بيروت، **2016**

المؤلف في سطور

رشاد أبو شاور

ولد في قرية (ذكرين) قضاء الخليل بتاريخ 1942/6/15هاجر مع أسرته عام 1948*

عاش مع والده – كانت والدته قد توفيت ودفنت في القرية قبل سنةً من النكبة، وبعد ثلاثة أشهر لحقت بها شقيقته ابنة السنة والنصف – فترة قصيرة في (الخليل)، ثمّ كانت الإقامة في مخيم (الدهيشة) قرب بيت لحم حتى العام 1952 .

انتقل مع والده إلى مخيم (النويعمة) قرب أريحا، وهناك عاشا حتى العام 57 عام 57 لجأ والده إلى سوريّة وحصل على اللجوء السياسي، ولقد لحق بوالده وعاش في دمشق حتى العام 65، ومن بعد عادا إلى (النويعمة) جار أريحا حيث عاشا حتى حزيران 67.

استقال من عمله البنكي عام 67 ليتفرّغ للعمل الوطني .

عمل في الإعلام الفلسطيني الموّحد، وترّأس صحيفة يومية في بيروت.

أقام في بيروت حتى العام 82 ، وفي دمشق حتى العام 1988 .

أقام مع أسرته في تونس حتى العام **1994** ويعيش منذ ذلك التاريخ في العاصمة الأردنية عمّان .

- منح عضوية اتحاد الكتّاب الفلسطينيين، القاهرة عام **1969** .
- أسهم في تأسيس الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين، وانتخب عضواً في الأمانة العّامة لعدّة دورات .
- عضو مجلس وطني فلسطيني منذ العام **83** .
- منذ نهاية الستينات وهو يكتب في كبريات المجلّات والصحف العربية.

صدرت له الأعمال الأدبية التالية:

الروايات:

- أيام الحب والموت دار العودة بيروت **1973**
- البكاء على صدر الحبيب دار العودة بيروت **1974**
- العشّاق دائرة الإعلام والثقافة م.ت ف **1977**
- الرب لم يسترح في اليوم السابع دار الحوار سورية **1986**
- شبابيك زينب دار الآداب بيروت **1994**
- سأرى بعينيك يا حبيبي دار الآداب بيروت **2012**
- وداعا يا زكرين دار الآداب بيروت **2016**

المجموعات القصصية:

- ذكرى الأيام الماضية دار الطليعة بيروت **1970**
- بيت أخضر ذو سقف قرميدي وزارة الإعلام بغداد **1974**
- الأشجار لا تنمو على الدفاتر الإعلام الفلسطيني بيروت **1975**
- مهر البراري – الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين – بيروت **1977**
- بيتزا من أجل ذكرى مريم – الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين – بيروت **1981**
- حكاية الناس والحجارة دار العودة بيروت **1989**
- الضحك في آخر الليل دار كنعان تونس **1989**
- الموت غناءً المؤسسة العربية بيروت **2003**
- سفر العاشق دار الشروق عمّان
- مجلد الأعمال القصصية بيروت **1982** ويضم المجموعات الخمس الأولى.

كتابات نثرية:

- ثورة في عصر القرود (مقالات مختارة) بيروت**1981**
- آه يا بيروت دار صلامبو تونس **1983**
- رائحة التمر حنّة المؤسسة العربية بيروت **1999**

مسرح :

- الغريب والسلطان دار الحقائق دمشق **1984**

للفتيان :

- عطر الياسمين قصص دار المسيرة بيروت **1979**
- أحلام والحصان الأبيض (قصص) دار الآداب بيروت **1980**
- أرض العسل (رواية) دار الحقائق بيروت **1981**
- ترجمت رواية (البكاء على صدر الحبيب) إلى الروسية، ونشرت في مجلة (الآداب الأجنبيّة) المختصة بنقل الروايات العالمية إلى الروسيّة، كما نشرت في مجلد مختارات من الأدب الفلسطيني.
- ترجمت مجموعتة القصص (حكاية الناس والحجارة) إلى الفارسية، وصدرت عن دار (صحف) في طهران .
- ترجمت كثير من قصصه القصيرة إلى لغات أجنبية.
- قدّمت عن رواياته وقصصه أطروحات جامعية .
- عام**1983** منح وسام المنظمة العالمية للصحفيين (**I.O.J**) تقديراً لدوره في معركة بيروت عام **82** والتي كتب عنها كتابه (آه يا بيروت) الذي صدر في ست طبعات، وترجمت فصول منها بإشراف الدكتورة سلمى الخضراء، ضمن كتاب (أنطولوجيا الأدب الفلسطيني) التي صدرت في أميركا عن جامعة كولومبيا.

- **عام 1996 منح جائزة القصّة القصيرة (محمود سيف الدين الإيراني) من رابطة الكتّاب الأردنيين.**
- **منح وسام القدس من الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب عام 2016**

الفهرس